إيمان الخطاف

سَاحِرَاتٌ بلا مَكَانِس

رواية

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab
SCANNED BY JAMAL HATMAL

العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific

سَاحِرَاتٌ بلا مَكَانِسْ

ساحرات بلا مكانس

رواية

إيمان الخطاف

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2018م - 1439 هـ

ردمك 978-614-01-2414-1

جميع الحقوق محفوظة

توزيـــع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إهداء

إلى البطين الأيمن والبطين الأيسر.. أمي وأبي.

"من يمتلك سبباً يعيش من أجله، فإنه يستطيع غالباً أن يتحمل بأية طريقة، بأي حال".

نيتشه

(1)

يتخيّل الأطفال الساحرة بوجه دميم وأنف معقـوف، تطـير بمكنسة خشبية، ورداء أسود. أما أنا؛ فلم تستطع الأعمال التلفزيونية تدجيني وغرس الهيئة النمطية للساحرات في ذهني. ليس لأني نبيهة، أو عبقرية. بل لأني "بنت الساحرة"، كمـا ينـادونني، لـذا أدرك أن الساحرات يأتين في هيئة آدمية، كحال بقيّة البشر.

أنا علياء، بنت الساحرة، بنت المشعوذة، بنت الدجالة، بنت خطّافة الرجال. كل النعوت الخبيثة تلاحقني، لأن والـدتي هـي سلمى نور الدين، المرأة القادمة من بلاد فاس ومكنـاس وطنجـة وتطوان، من حضارة بدأت مع الفينيقـيين وامتـدت إلى العهـد الإسلامي، وحضنت الثقافة الأمازيغية والعربية والعبرية والإفريقية. في ملامحها بهجة ساحة جامعة الفناء بمراكش، وفي روحها المرحـة لذة الطاجين والكسكس، وبين أضلعها قلب دافئ وشموخ يشـبه شجر الأرغان.

لكن لا أحد يرى كل هذا، وكأني أعيش في مجتمع كل من فيه **﴿... صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾**. فحين يتعلق الأمـر بـامرأة مغربية تزوجت رجلاً سعودياً له زوجة أولى، فليست الطامة في كونها سرقته من أم عياله، كما يزعمون، بل لأنها قادمة من بلـد لا يـرى الحمقى فيه إلا العهر والمجون والدجل والشعوذة.

لم يشفع لسلمى نور الدين التحاقها بحلقات تحفيظ القرآن، ولا حفظها سبعة أجزاء من المصحف الشريف، ولا احتشامها وارتداؤها الحجاب في الأماكن العامة.. بقيت صورتها محفورة في أذهان معارفنا، على أنها الغريبة التي أحضرها والدي بعد عودته من المغرب في رحلة عمل، قبل سبعة وعشرين عاماً، قائلاً لأم العيال (هذه زوجتي سلمى).

هاجت زوجة أبـــي عواطف، ثارت حانقة، حشدت أهلـــها وأهل والدي، تضامنوا جميعهم معها، تعاطفن عماتي مع ابنة الخـــال التي خذلها أخوهم خالد. هكذا رأوا المشهد، اصطفوا حول عواطف، وقاطعوا سلمى نور الدين قبل أن يروها، اعتبروها وصـــمة عـــار في تاريخ العائلة، نعتن أخاهم بالمراهق الأربعيني.

لكنه لم يُبالِ، وبقي مُتمسكاً بزوجته التي تعرّف عليهـــا أثنـــاء عملها كمنسقة لمؤتمر دولي عن التغير المناخي، كان والدي فيه ضمن الوفد السعودي المشارك. وبعد أشهر قليلة من انتهاء المؤتمر انضـــمت سلمى نور الدين إلى بطاقة عائلة خالد الضباني.

منذ ذلك الحين والتُهم تلاحقها أنها ألقمت والـــدي الســـحر. رددت عماتي (الموت أخذ أخونا عبدالعزيز، والمغربية سرقت أخونـــا خالد). كُن مفتونات بالخزعبلات التي تقصها عواطف عن شـــرور سلمى نور الدين بأخيهن خالد.

حتى اليوم تخشى عماتي دخول منزلنا الصغير، يتوهمن أن طعامنا معجون بالتعويذات والقوى الخارقة. يعتقـــدن أن والـــدتي تقـــتني الحيوانات المحنطة، والريش والقنافذ ورؤوس الضباع وجلود الأفاعي. يؤمنّ أن حياتنا مليئة بكل هذه الطلاسم، وما أن نقبل عليهن حـــتى تتمتم ألسنتهن بآية الكرسي والمعوذات.

الطريف أن والدتي تقابل ذلك بالتبسم والصمت، لم تمتعض. لم تُدخلني أي معركة مع عماتي أو مع عواطف وبناتها، حاولت جاهدة أن تنتشلني أنا ابنتها الوحيدة من مستنقع القلوب السوداء التي امتلأت بالكراهية منذ اقترانها بوالدي. لا أدري أكانت متماسكة حقا أم تحاول إظهار ذلك كي لا أنكسر؟

سألتها مرة عن سبب ارتباطها بوالدي رغم هذه التعقيدات، وفرق العمر الكبير بينهما، استشهدت بالمثل المغربي (لي هرب للزواج هرب للطاعة). أكان زواجها الشر الذي لا بد منه؟ أو الفضيلة التي واجهتها الشرور؟

حرب الحريم الشرسة لم تهز والدتي، ظلت معتزة بأصلها، لم تُغير لهجتها، ما زالت تزهو بارتداء القفطان في حفلات الزفاف والأعياد، تتفنن بطهي أشهى الأطعمة المغربية، وتلتزم بالساعة المقدسة التي تقضيها كل أسبوع في الحمام المغربي لدعك جسدها بالصابون البلدي وليفة الطاووس.

وإنصافاً أقول، هي لم تحاول طمس سُعودِيتي، حرصت على تعليمي لهجة والدي، ألزمتني بعادات مجتمعي، دفعتني دفعاً نحو ملاحقة عماتي الأربع، اللاتي لم تصفُ نفوسهن لنا مطلقاً.

أتذكر المرة الوحيدة التي زارتنا فيها عمتي تهاني، وهي الأخت الثالثة لوالدي، فرحت أمي وهللت، طبخت الكبسة الحساوية وكأنها تقدم عربون محبة للعمة التي ختمت زيارتها بطلب دواء لدرء النحس عن بناتها اللاتي لم يتزوجن، جاءت تطلب وصفة سحرية لمواجهة العنوسة، إنه القالب الذي يصر أهل والدي على وضع أمي

فيه. مهما مرت السنوات تبقى نظرهن لسلمى نور الدين أنها "أم الطبوب"، وأنا علياء، ابنة الساحرة.

قابلت والدتي حديثها بضحكات مجلجلة، طلبت من عمتي إحضار لسان حمار ومخ ضبع وريشة غراب، كانت تسخر منها، لكن عمتي أبدت حماسة واضحة، دفعت والدتي للقول (أمزح معك يا هاني). غضبت عمتي، لملمت عباءها على عجل (أنا الغلطانة. المفروض سمعت كلامهم وما جيتك)، ودعتها والدتي بامتعاض (حشومه عليك)[1]، ومنذ ذلك الحين لم تزرنا هي ولا أي أحد من طرف والدي.

عادت عمتي هاني للانضمام إلى معسكر عواطف وبناها، بتضامن مع عماتي الثلاث الأخريات. احتدت المعركة من جديد، طاشت الشائعات القديمة بإثارة أكبر تجاه والدتي (المخربية) كما يُسموها، مُطعمة بالبهارات الحارقة، إنها نكهة الغيرة والحسد التي جعلت نسوة العائلة يتكاتفن لمواجهة خطر سلمى المزعوم. وفي كل مرة تشتد كراهيتهن لي ولوالدتي، أجد أبي يقترب منا أكثر. حتى عندما حكت له والدتي تفاصيل زيارة أخته، ضحك من أعماقه (اهبلت هاني)، وضحكت معه والدتي وهي تقترب منه بتودد (كيغاروا من الحب ديالي).

كنت أرى المحبة المتدفقة بينهما، وأتساءل كيف لرجل وامرأة من عالمين مختلفين ولا يجتمعان إلا ثلاثة أيام في الأسبوع، ورغم ذلك استطاعا الحفاظ على الود بينهما رغم مرور أكثر من عقدين من الزمان؟ كيف استطاع والدي مواجهة هذا المجتمع الحريمي

---

(1) عيب عليك.

الملتهب، والصراع المشتعل، بأريحية وابتسامة تُحيّر أخواته قبل زوجتيه؟

هو لا يأبه بانتقادات المجتمع، ولا يعير أي اهتمام للطابع النمطي الذي يوصم الرجل المتزوج من امرأة مغربية بالسفيه، المضحوك عليه، المُغيّب، الواقع تحت تأثير السحر. وكأنه أطرش، لا يسمع ما يُقال عنه، ولا يكترث بقصص عواطف السامة والمُختلقة، التي تلقيها في مجالس النسوة حول زوجها الذي سحرته مغربية تعرف عليها في خمّارة، كما تدعي.

كثيراً ما أبكتني هذه القصص، كنت ألعن عواطف وبناتها في سري، ألعن المجتمع الجائع الذي يقتات في أنسه وسهراته على الأحاديث المفبركة والشائعات المثيرة، أمقت العنصرية البغيضة التي تستهين بعرض امرأة مغربية. وعندما أبحث عن علة هذا الصخب، أتوه. تارة أرى الاضطراب الذي نشأت فيه مكيدة من نساء شرسات امتلأت قلوبهن بالغيرة، وتارة أؤمن أن واقعي هو نتاج رجل فكّر بنفسه فقط.

عانيت لسنوات من أزمة الهوية، انشطار إلى نصفين، عسر في الانتماء، تبلد في الحس الوطني. هي أعراض لداء مجهول لم أستطع تشخيصه أو البوح به لأحد، داء أشبه بالهم الثقيل الذي أربك طفولتي وجعلني أختلق لزميلات الدراسة شخصيات مزعومة لأم أخرى وأخوات وهميات وعمات يصنعهن خيالي.

تعلقت في طفولتي بقصة سندريلا، كانت والدتي تحكيها لي يومياً قُبيل النوم، ولا أملّها. تخيّلت نفسي سندريلا العصر الجديد، شعرت أنني منبوذة مثلها، بحاجة إلى أمير ينتشلني إلى عالم آخر. نبذ

مجتمعي الصغير كبر معي بعد أن أصبحت شابة يانعة، تخرجت من جامعة الدمام ببكالوريوس في إدارة الأعمال مع مرتبة الشرف، فربطوا الأمر بالخرزة الزرقاء التي تُزيّن عنقي. توظفت في شركة أرامكو العملاقة، فارجعوا الفضل لحروز والدتي وتمائمها.

ثم جاء الأمير ليأخذ سندريلا.. خطبني وليد، المهندس الوسيم الذي يعمل في الشركة السعودية للكهرباء، اشتعلت النيران في بيت عواطف (كيف يأخذون بنت المغربية ويتركون بناتي؟). احترق قلبها، أكلته الغيرة. رغم أنها زوّجت ابنتها الكبرى سارة، ولينا وشيماء لم يفتهن قطار الزواج بعد، لكنها استكثرت هذا العريس علي، لأني ابنة الساحرة.

(2)

أشكال حلزونية، أوراق مدببة، دوائر صغيرة.. نقوش زينتها الحناية الهندية على ظهري يديّ، صباح حفل الخطوبة، اليوم الذي خضعت فيه لطلب والدتي في ارتداء التكشيطة[1]، أوصت خالتي رشيدة على إحضارها معها من مراكش، مطرزة يدوياً باحترافية وألوان زاهية. وللمرة الأولى أرى هذا الفرح الذي أغرق عيني والدتي بالدموع، مبتهجة إلى الحدّ الذي لا أستطيع وصفه.

تبارك هذه الخطوبة وتهديني نصائحها الحانية، تمتدح نصفي المُشكل من جدب صحراء شبه الجزيرة مع النصف الآخر المبحر في أعماق البحر المتوسط، تذكرني بالتعامل مع وليد كما تفعل المرأة المغربية، بشوفنيّة كبيرة، (السعوديات لما يتزوجوا ويولدوا كيهملوا الراجل، والسعودي يعرف كياخد المرأة المغربية من بيت دارهم وهو متْهني). تردد هذه الكلمات بثقة مفرطة، وهي تهز كتفيها بدلال.

تذكرت محادثتي الهاتفية الأولى مع وليد، هو يؤكد كلامها (أجمل ما فيك اختلاط العرق السعودي بالمغربي)، هذا الانشطار الذي اعتبره وليد ميزة خاصة، نكهة مختلفة، مزيجاً لذيذاً. تعود والدتي اليوم لتذكرني به، وكأنها تعيدني إلى أزمة الهوية التي عشتها منذ طفولتي، تريد مني الحفاظ على قطبين أحدهما موجب والآخر سالب،

(1) زي مغربي.

نقيض الشرق والغرب، الأحجية الغريبة التي شدت وليد وهو يفكـــر بعقلية "امرأتين في واحدة".

ألبسني خاتم الدبلة مبتسماً بشقاوة (كنبغيك بزاف)[1]، أربكتني جراءته، وقدرته على التعبير عن الحب بلهجة أمي، ابتسمت بتــوتر، وبداخلي ألف سؤال: أي حبّ هذا الذي تصفه ونحن نجتمع ســوياً للمرة الأولى؟ ألهذه الدرجة كلمة أحبك سهلة؟ شــعرت بابتــذال تعبيره، وربما أحس هو بذلك، ليردف (جميل اللبس المغربـــــي لــلا علياء.. مو يقولون للأميرة للا؟)، أومأت مع ابتسامة خجولة، فعــاد الارتياح إلى وجهه.

* * *

لم يعكر صفو الحفل إلا الوعكة الصحية التي ألمــت بوالــدي، ارتفاع نسبة السكر في الدم، اضطرب لرفض أخواتي وعماتي حضور حفل خطوبتي. كبر والدي وهرِم إلى الحد الذي جعله عرضة للتعب المفاجئ في أي ظرف يدعو للتوتر والقلق. وأنا لم أتفاجأ، أو بالأصح لم أحزن لغيابهن. سعيدة لأن حفل خطوبتي لم يكن ضمن برنامجــه فقرة التملق والخداع، فرحة نقية بعيداً عن دنس المجاملات والنفــاق الاجتماعي والمشاعر الزائفة، حفل يجمع الأحبة والمعارف، هذا جــل ما طمحت إليه.

أبشع المناسبات هي تلك الممتلئة بالقلوب السوداء التي تنتظــر وقوع الخطأ لتشفي غليلها، تعرقل خطوات العروس في الزفة، إغمــاء مفاجئ لإحدى المدعوات، تعطل أجهزة السماعات. مصائب كثيرة

---

(1) أحبك جداً.

يتلهف الكارهون لها، يبحثون عن الشماتة، أجواء بهذه السوداوية لن تكون مريحة بالنسبة إليه، لذا أشعر بالامتنان لغياب بنات عواطف وعماتي، غيابهن أراحني.

إلا أن الوهن السريع الذي ألم بوالدي خلال الأشهر الماضية أدخل الحزن إلى قلبينا، أنا وأمي، كنا نراه يضعف يوماً بعد آخر، داء السكري والروماتيزم وبداية أعراض ألزهايمر، تردي صحته هزّ شعورنا بالأمان والطمأنينة. الأب هو سدنا المنيع في هذا العالم، نراه يتهاوى أمامنا تدريجياً، اقترب من عامه السبعين وكأنه هرِم قبلها بسنين، وزاد العبء على والدتي التي تحملت مسؤولية رعايته بالكامل بعد أن لفظته لها عواطف، لم ترضَ عواطف بتحمل مسؤولية رجل مريض خذلها قبل ثلاثة عقود، وجدت في وهنه الفرصة للتنفيس عن غضبها المكتوم، (روح للمغربية إللي فضلتها علي). ردت الصاع لزوجها، وأسقطت الحمل بأكمله على عاتق ضرتها سلمى نور الدين.

أرى والدي هرِم وتزعزعت صحته، يتهاوى أمامي ببطء. هو من تقاسمت معه ذاكرة طفولتي، كان يغني لي (ماما وبابا حبوني، راحوا مكة وخلوني). يرفعني إلى السماء ثم يلتقطني بخفة. يعود إلى المنزل بثوب تورّمت إحدى جيوبه، يخرج منه حلاوة مصاص بنكهة الفراولة، ألتقطها وأركض فرحاً. كبر خالد الضباني وصرت أنافسه على قراءة جريدة اليوم[1] التي كان يدخل وهو يتأبطها كل عصر، أشاركه شرب شاي ربيع مع المكسرات المملحة، ومشاهدة الأفلام المصرية القديمة وبرامج الأخبار ودرب الزلق والأقدار وبساط الفقر[2].

(1) إحدى الصحف السعودية، تصدر من المنطقة الشرقية.

(2) برامج كويتية قديمة.

طقوس تلاشت تدريجياً، بعد أن تقهقرت صحته.

كبر خالد الضباني، هرم خالد الضباني. لم يتبقَ منه إلا ثلاثة أشياء، شرب الشاي ومتابعة نشرات الأخبار ورقعة الشطرنج، اللعبة التي علمني إليها في طفولتي، كانت فاكهة مجالسه مع أصحابه، نقل إليّ إدمانها، (هاتي الشطرنج)، بهذه العبارة تمتد ساعاتنا البيتوتية. أتقنت تكتيكات والدي في اللعبة، إذا بدأ في البيادق أتبعها بتحريك الحصان، أو اللعب مباشرة بالوزير ليلتهم قطع المنافس كلها ويعلن فوزه (كش ملك). في الآونة الأخيرة صرت أتعمد الخسارة، لأسمع ضحكته العميقة وأرى نشوة الفرحِ في عينيه، خسارتي أمامه كان تمده بدفعة معنوية عالية، وتجعله مطمئناً إلى أنه لم يفقد حيويته، كما يعتقد.

أسابيع قليلة وأخبرنا والدي برغبته في الذهاب إلى منتجع صحي في التشيك برفقة أحد أصدقائه لمعالجة ديسك الرقبة الذي أدخله في حالة من الاكتئاب. سفره أراح والدتي بعد أن أنهكها الإعياء من رعاية رجل مريض ومتطلب، وأراح عواطف التي أسكنت صوت ضميرها، وجاء بمثابة الفرصة التي اقتنصها وليد ليمارس دور الابن البار. استخرج كافة التقارير الطبية وأرسلها قبيل سفر والدي، وتكفل بإيصاله إلى المطار، وأبلغه بأنه سيتحمل مسؤوليتنا، أنا ووالدتي، أكد أننا أمانة في عنقه طيلة الشهرين اللذين سيقضيهما والدي هناك.

شدني اهتمام وليد وأقلقني في آن واحد، فلست معتادة على هذه الرعاية الذكورية المتكلفة، أعاد لذاكرتي كارتون عدنان ولينا، تقمص وليد شخصية عدنان الذي يراقب لينا ويحاول إنقاذها من أي خطر

محتمل، يعرض مساعدته دون أن أطلبها، أنا لست لينا يا وليد، لديّ عالمي وقدراتي وإمكاناتي، رباني والدي على الاستقلالية والتعلم من الإخفاق قبل النجاح، وليد يرفض ذلك، ووالدتي تصفه بالشهم.

الفتاة الطموحة المستقلة لا تبحث عن رجل تستند إليه، هي لا تريد عكازاً يساعدها على السير، لأنها تستطيع المشي بخفة، لكنها تبحث عن شريك يمنحها الحنان والحب الذي لا توفره لها متطلبات حياتها الضاجة بالعمل والإنجاز. المرأة التي ثبتت قدميها في معترك الحياة لا ينقصها سوى شريك بقلب دافئ تُفضي إليه بمشاعرها قبل مشاكلها، رجل أشبه بواحة خصبة وسط صحراء، تنهل من مياهها الجوفية العذبة وتنعم بظلالها الوارفة. أن يكون الرجل منطقة الأمان، محطة الاسترخاء، بهجة الحياة.

وليد قدم إليّ بصورة الأب، أنا المُشبّعة من رعاية الأب وحكمته وصلابته، هذا الدور الذي لا يتقنه أحد عدا خالد الضباني، أنا طفلته المدللة التي منحها كل شيء، دون أن يهضم حق أخواتي، كان منصفاً وحازماً في تربيتنا، قاعدته (بنت سلمى لها مثل ما لبنات عواطف)، عاملنا أربعتنا كفتيات ناضجات واعيات، الأب الذي مهّد لبناته فرص المستقبل ثم أطلق سراحهن، ليحلقن في السماء.

وليد نافسه في ملعبه الصعب، اختار الدور غير المناسب. كانت تقلقني نظرته إليّ على أني أنثى ضعيفة بحاجة إلى رجل ينير بصيرتها، اعتبرت ذلك مقدمة لشخصية "سي السيد" التي يعيش وليد في جلبابها، لكن والدتي المبهورة بحماسة وليد واندفاعه تراني فتاة بلا خبرة، مكتفية بالصورة الوردية التي رسمتها لخطيب ابنتها.

التصاق وليد المستمر وهداياه الباذخة أرغماني علـــى اعتيـــاده، رسائله أضفت بريقاً مختلفاً لصباحاتي، الطريق بين المنـــزل وشـــركة أرامكو صار أكثر متعة برفقة هاتفي المحمول، أنا أنثى برج السرطان، الممتلئة رقة، أبحث بين سطور رسائله عن عاطفة صادقة بعيـــداً عـــن العنتريات وعبارات القوة التي يحاول وليد إظهارها لي.

أحاول التماسك وعدم الاندفاع ناحيته، أقول (بعد العشرة يبان المستخبـــي)، فيضحك (كلها شهر ونشوف!). وكلما اقتربت ليلة الزفاف تزداد مخاوفي، مشتتة أنا ما بين تحضيرات الزواج ومتطلبـــات العمل، أحاول أن أنجز أكبر قدر من مهامي الوظيفية كـــي أســـتجم بأريحية في شهر العسل، بدت الأمور تسير بعجلة لم أتوقعها. أســـابق الزمن كي لا تتعطل الترقية التي وعدني بها رئيس القسم أبو فواز مطلع العام، أحاول ألا تفوتني الترقية بسبب متطلبات الزواج، غصت بـــين الأوراق والمخاطبات، لم يستوقني إلا تعليق زمـــيلتي زينـــب (إيـــش الفراشة إللي بإبهامك؟)، كانت علامة صغيرة في جانب ظفر إبهـــام يدي اليمين، ابتسمت (ما أدري).

(3)

يأتي الصباح برائحة الكافيين المركــزة، عطــور الليمــون والورد المنعشة، أو برائحة الفول والشكشوكة. لكنه يستقبلني دائماً برائحة السجائر، عفونة النيكوتين. صــحيح أن الشــركة تحــذر الموظفين من التدخين، لكن ذلك لم يمنع بعضهم من الاصــطفاف خِلسة جوار الباب الخلفي لشفط أعواد السجائر المشتعلة بنتنــها وكربونها.

(أوف) أنفض عباءتي داخل المكتب، تضحك زينب (كتمــوك إللي تحت). أبدأ معها في تناول وجبة الفطور المكونة مــن منــاقيش الزعتر الشهية وكوبين من الشاي الساخن، وهي طقوس لا نمارســها إلا صباح كل ثلاثاء فقط، إذ يدللنا رئيسنا أبو فواز بطلب المعجنات المشكلة، لكسر روتين العمل.

هذا الصباح رغم أنه بدأ بشكل اعتيادي، إلا أن هناك ما يُريبه. فلم يراسلني وليد بتحيته الصباحية المعتادة. وبعد ساعة مــن تنــاول الفطور بدأت الوشوشة بين الزملاء، أراهم يتهامسون ولا أسمعهــم، أشك أن هناك تغيّراً في الشركة، ربما شائعة جديدة، تقليص الأجــور والبدلات، تقاعد مديرنا. تداخلت الاحتمالات في رأسي، وبقيــت صامتة، بانتظار أن يأتيني الدور لإفراغ الشائعة الجديدة في أذني، فلــم يفعل أحد.

سألت زينب (إيش قصتكم؟)، ارتبكت (سلامتك). وعـادت إلى صمتها، وهي تحك طرف أنفها بإصبعها الطويل. أعرف زينـب، لا تفعل هذه الحركة إلا إذا توترت، هناك أمر ما تخفيه عني. لحظـة خروجها من المكتب لإحضار أحد الملفات، عادت بوجه مختلـف، هناك أمر استوقفها، ربما سمعت بالشائعة التي لم تصلني إلى الآن. لكن لماذا لا تخبرني بما سمعت؟ لماذا يتكتمون عليّ؟

عدت إلى عملي، على مكتبـي المُزين بصوري مع والدي. هنا كنا في كاليفورنيا، هناك في بيروت. وصورة تجمعني مع زملائي أثناء حفل تدشين المركز الثقافي بالظهران، وفي وسط المكتب شهادة شكر إلى الموظفة المجتهدة (علياء خالد الضباني)، هذا الاسم الذي أفخر فيه وهو يتدلى من رقبتي على البطاقة التعريفية للموظفين.

استفتح عملي دائماً بقراءة رسائل البريد الإلكتروني التي تصـلني عبر إيميل الشركة، والرد على بعضها، مع استبعاد القصص السـامجة التي تصلني بين الحين والآخر عبر مجموعات الموظفين. يـوم روتـيني كحال بقية أيام الأسبوع، فبعد أن نبتلع المعجنات وتمتلـئ بطوننـا بالكربوهيدرات والنشويات، يفقد الثلاثاء رونقـه، ويصـبح مثـل الأربعاء والخميس وسائر الأيام. هكذا ظننت، حتى أمسكت هـاتفي المحمول لأتفحص حسابـي في شبكات التواصل الاجتماعي، وأجد اسمي موجوداً بصفته الحدث الأكثر تداولاً لليوم، صُدمت، وقفت من كرسي المكتب، تسارعت دقات قلبـي، حركت إبهامي بسـرعة، فتحت مقطع الفيديو المتكرر، مدته دقيقة، يضم فتاة ورجل في غرفة مغلقة داخل أحد المطاعم، وهو يقترب منها، يضمها ويقبلها، فيدخل عليهما موظف الأمن فجأة، ومن هنا بدأت الفضيحة.

تمعنت في الفتاة، إنها أختي شيماء، وهذا الرجل الذي معهـــا لا أعرفه، والتعليقات تمس ابنة خالد الضباني، والكل يُجمع (أكيد بنت المغربية)، وآخرون يضيفون (إيش تتوقعون من وحدة أمهـــا مغربيـــة وعملها مختلط؟).

تسارعت دقات قلبـــي أكثر، تملكتني رعشة مرعبة، بـــرودة في الأطراف، سقطت على الأرض، ولم أفق إلا في العيادة الصـــحية في الدور الأرضي للشركة، مع انخفاض ضغط الدم المفاجئ. وجـــدت زينب تطبطب على يدي (سلامتك حبيبتي). وأنا لا أعلم أكنـــت في كابوس أم هذا واقع؟ سألت زينب ولم تجب، فأدركت أن ما حدث معي قبل ساعة لم يكن من نسج الخيال.

تفقدت هاتفي المحمول، زينب (جوالك معي اهدئي ونتفـــاهم)، على ماذا نتفاهم؟ وما فائدة هدوئي من عدمه؟ ما الـــذي يحصـــل؟ التساؤلات تنخر رأسي، لكني متيقنة أن هناك فضيحة تمس العائلـــة، صرت أنا قربانها. عزمت على الاتصال بوالدتي ثم قطعت الاتصـــال قبل أن ترد، لا أدري ماذا أقول لها. ثم حاولت الاتصال بوليد لكنه لم يرد.

نهضت من سرير العيادة، ولملمت عباءتي وقبضت على حقيبـــة يدي، متجهة إلى مديري أبو فواز الذي استأذنته بالانصراف بـــاكراً، ويبدو أنه كان متفهماً لوضعي. سمح لي بالانصراف دون أن يســـألني عن السبب. خرجت إلى ساحة مواقف السيارات، لأجـــد الســـائق يفترش أرض الحديقة مع زملائه الهنود، وهم يتحـــدثون ويقهقهـــون برفقة أكواب كرتونية ممتلئة بالشاي الساخن، ناديته (محمود تعال!)، بدا متفاجئاً، ركض تجاهي، طلبت منه بحزم تشغيل السيارة كي نعود

إلى المنزل، لاحظت الدهشة في عينيه، تحرك مسرعاً، ليعود بعد دقيقتين، فتحت الباب، جلست في المقعد الخلفي، أنظر إلى النافذة بصمت، شاردة نحو اللاشيء.

رن هاتفي المحمول، رددت على عجل:

- وليد إيش صاير؟
- الكلاب ناشرين فيديو لوحدة ساقطة ويقولون إنها أنتِ. (بغضب).

عدت لتوتري، انعقد لساني، لم أستطع الاعتراف بأن صاحبة المقطع هي أختي شيماء، خشيت فضحها، رغم أن الفضيحة تأكلني قبلها. لكن وليد يعرفني، ويعرف أني لست الفتاة الظاهرة في الفيديو، وربما هذا ما يواسيني الآن.. سألته:

- والحل؟
- لازم نأخر زواجنا، شهر شهرين ثلاثة، حتى ينسى الناس الموضوع.
- لكن تأجيل الزواج يثبت التهمة عليّ!
- ما باليد حيلة. (بارتباك).

* * *

الساعة تتجاوز الحادية عشرة، وصلت إلى المنزل قبيل أذان الظهر، دخلت لأجد والدتي تشاهد مسلسلاً تركياً مملاً وهي تحتسي الشاي المغربي، يبدو أنها للتو استيقظت، وما أن رأتني حتى انتفضت (سلامتك علياء؟)، طمأنتها (مرهقة شوي).

الأدق أني اطمأننت إلى أنها لم تعرف ما حدث، لا تدري أن الناس يلوكون اسم ابنتها منذ ساعات الفجر الأولى. كثيرون وجدوا في المقطع كبش الفداء للمطالبة بتوسيع صلاحيات العاملين في جهاز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو شرطة الآداب. كلٌّ يغني على ليلاه، ما بين متشائم يرى أن أخلاق الشابات السعوديات اضمحلت وآخر ساخر يعلّق على المشهد بوقاحة فجة. لحسن الحظ أن والدتي لا تعترف بشبكات التواصل الاجتماعي ولا تتابعها. حمدت الله في سري، ودخلت غرفتي حائرة، مشتتة، مهزومة.

رميت نفسي على السرير بتثاقل، والهم يبتلعني، أفكاري مشوشة، لا أدري ماذا أفعل، هل أنا حزينة لهذه الفضيحة التي تهز سمعتي وسمعة والدتي وعائلتي كلها؟ أم لموقف وليد المتخاذل معي؟

أيفترض أن أترك الأمور عائمة أم أوضح الحقيقة للناس؟ أليس الإنكار يُثبت الواقعة كما يُقال؟ فلا أكثر حماقة من جملة "لا نار بلا دخان"، لا أنا النار ولا الدخان، بل ضحية، مُتهمة، سجينة لجريمة لم أقترفها.

ماذا يعني أن أقول لسكان الكرة الأرضية إنها أختي شيماء وليست أنا؟ ألستُ هنا أؤكد دناءة العائلة التي أمثلها؟ فالأولى فاجرة في نظر الناس والثانية تعلن وتبارك الفضيحة، ياه، نحن عائلة زبالة، هكذا سيُقال عنا بكل بساطة، وبدلاً من أن تكون المصيبة واحدة، ستنشطر إلى اثنتين، وتكبر أحداث القصة وتمتد تفاصيلها لتشمل حالة الشقاق والتفكك الأسري الذي نعيشه، إنها فضيحة الموسم.

بقي احتمال يدور في رأسي، أن تكون عواطف وراء ذلك، لتبث حقدها وسمومها في تشويه سمعتي، ربما أرادت من هذه المكيدة رفع الشبهة عن ابنتها شيماء، ورمتني لمواجهة النيران وحدي، إنه حقد زوجة الأب الذي امتزج مع خوف الأم على مستقبل ابنتها المتهورة، أرادت أن تحميها فادعت أن الفتاة هي علياء وليست شيماء، مستغلة تشابه اسمينا وشكلينا وتقاطعنا مع أب واحد، مستثمرة نظرة المجتمع القبيحة تجاه المرأة المغربية التي أنجبتني وربتني.. نعم قد تكون عواطف.

توقفت قليلاً عن التفكير، بدا لي أن تسريب مقطع الفيديو أراد ضرب سمعة العائلة، وربما خالد الضباني بالذات، والدي الذي يصفه المجتمع بالمتمرد، الناقم، الخارج عن الأعراف. والدي الذي لديه الكثير من العداوة مع المتشددين، والدي الذي يوصم بالليبرالي. ربما هذه الحرب معه هو وليست معي أنا أو شيماء، وربما ألبسوني التهمة لأني ابنة المغربية، لجعلها أكثر قابلية للتصديق في أذهان الناس، لأن من سرّب مقطع الفيديو هي حسابات وهمية، أظنها حصلت عليه من جهة رسمية. الاحتمالات تسقط على رأسي كنصل سكين حاد يقطع أنسجة الدماغ، تفكيري مشتت، انتابني صداع عنيف، وكأني في دوامة، بحور عميقة من التيه والضياع، كلما غرقت انتشلتني فكرة ثم أعود للغرق من جديد.

أوقف أفكاري قرع الباب بشدة، إنها والدتي، دخلت بوجه أحمر مغسول بالدموع (صحيح إللي سمعت؟)، أومأت لها، فأخذت تلطم وجهها (يا ويلي يا ويلي)، بكاؤها قتلني. نهضت من السرير لأحتضنها، وكأني أمسك عصفوراً يحاول الطيران، كانت تقاوم

وتولول، لم أستطع التماسك أكثر، بكيت معها، بكينا سوياً. هدأت والدتي قليلا، مسكت يدها وأجلستها على السرير:

- أنا بريئة، إللي في الفيديو شيماء بنت عواطف.
- الله يلعن عواطف وبناها!

(4)

صمت طويل، امتد بيني وبين والدتي، التي لم تتوقف شفتاها عن التمتمة (لا حول ولا قوة إلا بالله)، أعتقد أنها قالتها مائة مرة. بدأت أفكر باللازم فعله في هذا الموقف الأكبر من طاقتي وحدود مقـدرتي وسنوات دراستي وخبرتي المهنية، أكبر من كل شيء. إنه الاختبـار الصعب الذي يأتينا بشكل مفاجئ، دون أن ندرس، اختبار يضـعنا أمام مصيبة لا حل لها، وكل الحلول الممكنة لها ضريبة قاسية، فهـل أكون كبش الفداء؟ أم أتعامل بطريقة "عليّ وعلى أعدائي"؟

ماذا بشأن وظيفتي؟ مستقبل زواجي؟ سمعتي التي بنيتـها طيلـة سنواتي الست والعشرين؟ أيهتز كل ذلك بلحظة طيش مـن أخـت متهورة؟ وحتى لو اتضحت الحقيقة، فهل يهـتم النـاس بالتوضـيح والتصحيح بقدر الاهتمام بتناقل الفضيحة؟ أم سيبقون يبحثون عـن النار التي لها دخان؟

توقفت والدتي عن الحوقلة فجأة:

- لازم أبوكِ يعرف، عيطي ليه[1].
- علاش؟[2].
- .... (صمتت).

---

(1) اتصلي به.
(2) لماذا؟

نحن لسنا متأكدتين من وصول الخبر إلى والدي، ونخشى أن يعلم به وهو يبعد عنا آلاف الكيلومترات، مع ترهل صحته، وتكالب أمراض تقدم السن عليه. نعلم أن إبلاغه بفضيحة كهذه قد تُفقده حياته، خاصة وأنه مسافر في رحلة صحية، فلا داعي لإقحامه بهذه التفاصيل المشينة. تذكرت كلام وليد (بكرا الناس تنسى الموضوع)، هل حقاً الأمر بهذه السهولة؟

وإلى أن يأتي هذا (البكرا) قررت أن أبعث رسالة بالبريد الإلكتروني إلى أبو فواز، لطلب إجازة لمدة أسبوع، أنا التي لديها رصيد وافر من أيام الإجازات، تعمدت اختزانه كي أحصل عليه كاملاً بعد زواجي بوليد، الزواج الذي أصبح مع وقف التنفيذ.

ذهبت والدتي لتصلي الظهر وتطلب من الله إغاثتنا من هذه المحنة، وعدت أنا إلى عزلتي وأفكاري المتضاربة، حتى جاءني اتصال من رقم غريب على هاتفي المحمول (مرحبا علياء. أنا أختك سارة).

لا أدري هل أضحك أم أبكي على هذه المصيبة التي جعلت أختي الكبرى تهاتفني للمرة الأولى وتعترف لي بأخوّتها.. أختي التي لم تعش معي طفولتي، لم تشاركني بهجة الأعياد، و لم تحضر حفل خطوبتي. أختي على الأوراق الرسمية فقط، التي تذكرتني الآن، لتقول:

- شيماء غلطت ومعترفة بغلطتها، واحنا أخوات وسمعتنا وحدة، الأفضل تجاهل كل شيء.
- تطلبين مني التجاهل؟ يعني أسكت وتلبسني التهمة؟ (بغضب).
- لا تقلقي، قدمنا بلاغ إلى هيئة الاتصالات وبلاغ في كل الشبكات الاجتماعية، المقطع بينحذف.

- وكيف نحذفه من ذاكرة الناس؟
- بالصمت، الصمت يا علياء.. كل إللي يعرفونك يدرون إن هذه وحدة غيرك، ولأن علاقتنا كأخوات مقطوعة، مستحيل يظنوا إنها أختك.. المتوقع أنها فتاة تشبه علياء وخلاص!

* * *

حديث سارة بدا لي مقنعاً، مع كونه قاسياً وغير منصف. آلمني تأكيدها أن انقطاعنا عن بعضنا كأخوات أصبح "نعمة"، بقدر ما أضحكني هذا التبرير المتخاذل. لكن لم أوافقها، بقيت صامتة، متشككة من كلامها، طاعنة بنواياها، ما دفعها لتغيير النمط العقلاني إلى مخاطبة العاطفة واستجداء المشاعر.

- يا علياء تخيلي لو وصل والدي الخبر كيف وقع الصدمة عليه.
- إذا ما عرف الحين، بيعرف بعدين.
- والله إن أمي في كرب عظيم، حزينة، أتوقع أمك نفس الشيء، وزيادة الكلام بالموضوع تكبره. (بضعف).

شدني انكسار سارة، تلك الشامخة التي رضعت الحقد من عواطف، أصبحت اليوم تستجديني وتتسول مني الصمت لمصلحة الأسرة والأب وسمعة البنات وكل شيء. أخبرتني أن من سرب مقطع الفيديو هو رجل لعوب تعرفت إليه شيماء، انتقاماً منها على إنهاء العلاقة، نشره تحت مسمى (بنت خالد الضباني)، والناس توهمت أن المقصودة هي ابنة المغربية التي تعمل في شركة مختلطة، فلا أحد يعرف

من هي شيماء، الفتاة العاطلة التي لم تستطع إكمال تعليمها الجامعي. طمأنتني سارة إلى أنهم سيتعاملون بجدية مع تهور شيماء، مرددة (دواها عندي).

تعاطفت معها ووافقتها على مضض، كي أُنهي هذه المحادثة الخانقة، ثم أخبرت والدتي بالتفاصيل، استنكرت كلامي (صدقتي بنت عواطف؟)، حاولت التأكيد على صدق حديث سارة، فعادت للولولة (ضحكوا عليك يا هبله). تركتها وذهبت لآخذ حماماً دافئاً، ظلت المياه تنهمر على جسدي المرهق، وتنبهت إلى أن البقعة البيضاء الصغيرة في أظفر إبهامي امتدت لتشمل ظفري إصبعيّ السبابة والوسطى.

(5)

لا تُصالحْ!
.. ولو منحوك الذهب
أتُرى حين أفقأُ عينَيْكَ،
ثم أثبتُ جوهرتين مكانهما..
هل ترى؟
هي أشياءُ لا تُشترى..

(شاطرة يا علياء)، يصفق والدي بزهو، بفخر العروبي الذي لم تكمل ابنته عامها العاشر واستطاعت حفظ بعض من قصيدة الشاعر أمل دُنقل، أرتمي في أحضانه، اسحب حلاوة مصاص من جيب ثوبه.

اليوم كبرت، لم أعد أتلذذ بحلاوة المصاص ولا بالعلكة التي بداخلها، أصبحت فتاة بذاكرة مترهلة، عوالق غير متجانسة، أسترجع ما حفظته وأضحك على قدري، طيلة عمري أصالح وأصالح وأصالح. عانيت في طفولتي من قطيعة الأرحام ونبذ المجتمع ووصم والدتي وأهلها بما ليس فيهم. وامتد ذلك إلى الطعن في سمعتي بحجة أن والدتي مغربية، وكأن الشرف والطهر حكر على نساء شبه الجزيرة العربية.

أنا لن أصالح، ذاكرتي امتلأت بالأحداث المقيتة، النبذ والاستشراف. هم يختلفون إن كانت المغرب دولة عربية أم أمازيغية، لكنهم يتفقون على هويتها الإسلامية، و لم يحمها ذلك من عنصريتهم المقيتة. المسلم يزدري المسلم الآخر، يستنقصه، ينتقد مصاهرته.

أعلم أن والدتي سلمى عانت هي الأخرى من المغاربة الذين رأوها سلعة اشتراها رجل قدم من بلاد النفط، إنه عار الفكر المسكوت عنه، حرب الجغرافيا العربية، معركة تطهير الذات وتدنيس الآخر، وكأن انصهار زوجين من بلدين مختلفين هو لعنة كبيرة تستحق الرجم، الكل يخفي ما يُبطن ويُظهر ما يدعي، ثم يتملقون (جميعنا مسلمون). أي إسلام وأنتم تجعلون لحم علياء الضباني لقمة سائغة تتلذذ الأفواه بمضغها بقلب ميت؟

فضيحة مقطع الفيديو أوقظت أوجاعي، كانت نائمة بعد أن شققت طريقي وتخرجت وتوظفت وخطبني وليد، هكذا ظننت، حتى عاد نعتي بـ (بنت المغربية)، اللقب العنصري الذي ظل يرافقني منذ ولادتي، ومع كل مصيبة يعود للتداول. لن أصالح.. لن أصالح.

أتأمل صورة وليد في هاتفي المحمول، أتمعن بذاتي المنسيّة، وأتذكر ما قاله محمود درويش:

تُنسى، كأنَّكَ لم تَكُنْ
تُنْسَى كمصرع طائرٍ
ككنيسةٍ مهجورةٍ تُنْسَى،
كحبّ عابرٍ
وكوردةٍ في الليل.... تُنْسَى

* * *

مرت ثلاثة أشهر، عاد خلالها والدي من رحلة العلاج، حصلت أنا على ترقية في العمل، تزوجت شيماء بسرعة البرق دون أن نعلم حيثيات هذه الزيجة، أقفل النسيان ملف الفضيحة، انشغل الناس بفضائح أخرى أكثر سخونة وطزاجة. وطيلة هذه المدة لم يعد وليد، وكأنه دخل في غيبوبة مفاجئة، اختفى من كل شيء، اختفت اتصالاته، رسائله، هداياه. كرست وقتي وجهدي للعمل بدأب مرعب، كنت أتحاشى التفكير، أهرب من رعب التساؤلات، صدمة الخذلان، وجع الخيبة، ألم التخاذل الذي منحني إياه وليد.

قررت السير في حياتي دون الالتفات إلى الوراء، من البيت إلى العمل ومن العمل إلى البيت، ثم أقضي إجازة نهاية الأسبوع في القراءة ومشاهدة الأفلام، حياة عنوانها الرتابة والروتين، فلا شيء يُفقدنا لذة الحياة مثل الخذلان، أن يخذلك أحدهم يعني أن يقتل أملك فيه، الخذلان يهز ثقتنا في العالم كله.

وليد صفعني صفعة العمر التي لا تُنسى، إلا أني أظهرت تماسكي أمام والدتي ووالدي والناس أجمعين، حمدت الله أنني لم أكن متعلقة به، لملمت جراحي بسرعة، خشيت نظرات الشفقة، فلا شيء يؤلم مثل اعتباري فتاة مثيرة لشفقة الآخرين، خفت من سماع (مسكينة تركها)، كبريائي منعني من البوح بألم الخذلان، تصنعت اللامبالاة، وتسترت خلف غطاء الدين مُعتبرة أن اختفاء وليد هو "الخيرة" التي كتبها لي الله.

وربما شاغلي الحقيقي وقتها هو افتراش البقع البيضاء على مساحات متعددة فوق أظافري، إلى الدرجة التي أصبحت تلفت

انتباه الآخرين (إيش فيها أظافرك يا علياء؟)، كنت أعتقد أن هذه البقع بسبب نقص في بعض الفيتامينات أو إرهاق من ضغوط العمل، إلى أن نصحتني زينب بمراجعة طبيب جلدية للاطمئنان على أظافري، لم أهتم في بداية الأمر، لكن البقع البيضاء بدأت تميل إلى الاصفرار، ونهايات الأظافر أصبحت هشة ومتعبة. حسمت أمري واتجهت إلى طبيب جلدية شهير، الدكتور ناجي في عيادته الخاصة بمدينة الخبر.

فحص أظافري بشكل سريع، (أعتقد فطريات)، قالها وهو يكتب على ورق الملف الصحي، سألته (من وين جت؟)، رد بآلية (لا يوجد سبب محدد)، وشرح لي الدواء الذي جاء على طريقة طلاء الأظافر، مع مرهم يومي، أخذت الوصفة بتثاقل، وبدأت العلاج فور عودتي إلى المنزل.

***

لطالما اعتبرني والدي الفتاة النابغة، حفظت المعلقات السبع في صباي، تعلمت الإنجليزية والفرنسية وقليلاً من الأمازيغية، تخرجت من الجامعة بمرتبة الشرف. أدمنت القراءة باكراً، تعرفت على "تاجر البندقية" لشكسبير و"دايفيد كوبرفيلد" لديكنز و"ذهب مع الريح" لمرغريت ميتشل و"الأرض الطيبة" لبيرل باك، قبل انتهائي من المرحلة المتوسطة.

لكن نباهتي هذه تخذلني حين يتعلق الأمر بالمعلومات الطبية. ثقافتي الصحية ضعيفة، بل أضعف من ضعيفة، لم أستطع فهم ماهية هذه الفطريات التي شخّصها الطبيب، للتو علمت أن هناك فطريات

تصيب الأظافر. أُطمئِن نفسي بأنها ليست بالأمر العسير، وستزول بعد انتهاء مدة العلاج، لذا قررت أن لا أخبر والدتي.

بدأت أبحر في "غوغل" للتزوّد بمعلومات أكبر حول هذا الداء، قرأت تجارب العرب والأجانب، تعرفت إلى الأسباب والأعراض، وجدت من يهوِّن الأمر ومن يُضخمه. قطعت الطريق على نفسي وقررت الاكتفاء بالوصفة العلاجية، مر أسبوع وآخر دون أي تحسن. إلى أن جاء اليوم الذي سلّمت فيه إحدى الأوراق إلى أبو فواز (سلامة أظافرك يا علياء)، كان ينظر إليّ بشفقة واستياء مخلوطين ببعض الاشمئزاز، نظرة غريبة لأول مرة أراها في عين رجل، نظرة تهز ثقة أي امرأة بنفسها.

طالما كانت اليد موضع الفتنة، مرتبة الأظافر، مزينة بالخواتم، مشعة بالأنوثة. يدي تبدلت، وكأنها يد حيزبونة شريرة تخلط حساءها الأخضر بلون الضفدع، والفقاعات تتطاير منه، وهي تُحركه بملعقة خشبية طويلة، وتُطلق ضحكات مُتكسرة لا معنى لها. هل تنبأوا بأن تصبح يدي كيد ساحرة، أنا التي وُصمت في طفولتي بـ "ابنة الساحرة"، بدلاً من أكون سندريلا، أصبح في شبابي فتاة ذات يد دميمة، تشبه يد الساحرات.

الدواء جعل أصابعي باهتة، والفطريات تتفطر بين أظافري بوقاحة مفرطة. لم أجد رداً ملائماً على أبو فواز، إلا أن فضوله لم يتوقف، فأخبرته أني أراجع في عيادة الدكتور ناجي توفيق. تعجب من عدم ذهابي إلى مستشفى أرامكو، فأوضحت له تكتمي على الأمر، تفهم ذلك، خاطبني بصوت الأب (يا بنتي روحي مستشفى حكومي أفضل، المستوصفات الأهلية ما عندهم سالفة). دون أن

ينتظر ردي، اتصل بأحد معارفه ووجهني إلى الدكتور محفوظ في مستشفى القوات المسلحة بقاعدة الملك عبد العزيز الجوية بالظهران.

بعد ثلاثة أيام اتجهت إلى الدكتور محفوظ الذي أدخلني بلا موعد لأني من طرف أبو فواز، أخبرته مشاهداتي بالتدريج، كيف بدأت هذه الفطريات اللعينة وإلى أين وصلت، كان ينصت إليّ باهتمام شديد، ثم سألني إن كنت أعاني من أي ندب أو علامات في جسدي، أنكرت، استأذنني أن يفحص شعري، رفعت الغطاء، وصار يُقلب جذور الشعر ويتمعن في فروة رأسي، ينثر بعض القشور، قلت (أعاني من القشرة، تروح وترجع)، فاجأني رده (ما أعتقد إنها قشرة). عاد إلى كرسيّه، طلب مني الذهاب إلى المختبر لأخذ عينة صغيرة من أظافري للفحص، على أن تظهر النتيجة بعد خمسة أيام.

حيّرني هذا الطبيب قليل الكلام، لا أعلم ماهية ما يدور في رأسه، لكني جاريته وأتممت التحاليل المخبريّة المطلوبة، وفي اليوم الخامس عُدت إليه، وجهه كان يشي بالإحباط، نظرة لم أستطع نسيانها، خاطبني بصوت الواثق:

- علياء، إللي فيك مو فطريات أظافر. هذي صدفية.
- كيف صدفية؟
- الصدفية مرض جلدي، موجود في فروة رأسك، عند الإذن اليمين وفوق الرقبة، المشكلة بعض الناس ما تفرق بين قشرة الرأس والصدفية.
- طيّب وأظافري؟

- نفس الشيء الأظافر، البعض يختلط عليه الأمر بين فطريات الأظافر وصدفية الأظافر.
- كلامك حيرني. يعني كل شهر يطلع فيني مـــرض جديــــد (بيأس).
- يا بنتي نتائج التحاليل هي الفيصل، المختبر أكد شــكوكي، إللي فيك صدفية.

(6)

كنت طفلة لم تتجاوز العاشرة، أذهب إلى بحر هاف مون مع والدي، وأركض إليه بنشوة (بابا شف كم صدفة جمعت)، يبتسم (يا سلام عليك). كبرت اليوم، وصرت أشفق على نفسي، أخشى أن أصداف البحر التي كنت أفرق شملها وأشتت وحدها وأتفاخر باقتنائها، جاءت لتغزو رأسي وأظافري انتقاماً مني، الثأر القديم لجريرة اقترفتها وأنا طفلة، وأدفع ثمنها اليوم في زهرة شبابي. أنا التي لا أعرف عن الأصداف سوى بريق لمعتها ومنحنياتها الآسرة، لم أعلم أن هناك مرضاً مقززاً باسمها، مرضاً مُبهماً كالأحجية، لا أدري من أين جاء.

الدكتور محفوظ يُرجح أن لديّ استعداداً وراثياً للإصابة بالصدفية، لكني أسترجع أفراد عائلتي واحداً بعد آخر ولا أذكر أن أحداً منهم أصيب بهذا الداء، فهل أكون أنا المؤسس للجين الوراثي؟ هراء. أحاول الاستيضاح أكثر عن المرض، فأكتشف أنه يتعلق بخلل في الجهاز المناعي، لكن الحقيقة الصادمة أنه مرض مزمن، طويل الأمد، ملاصق، وصمة ترافقني طيلة العمر. رغماً عن المراهم الممتلئة بالكورتيزون التي وصفها لي الدكتور محفوظ تحت حجة (بنحاول نسيطر على الصدفية)، محاولة السيطرة تشبه استجداء هذا الداء الرحمة بيديّ النحيلتين، نحن نتوسل الإشفاق

علي والتخفيف من وطأة هذه العلامات اللافتة.

تشخيص الدكتور محفوظ امتد ليشمل عدة احتمالات، تضمن إحداها التعرض إلى ضغوط نفسية شديدة، استوقفني ذلك، لكنه حاول استبعاد هذه الفرضية (شابة صغيرة وجميلة مثلك ما أعتقد مرت بانهيار نفسي)، هو لا يعلم أن ظاهري يختلف عن باطني، فصورتي الاجتماعي اللطيفة لا تُظهر حجم الضغوط التي عشتها بدءاً من النبذ العائلي في طفولتي، وصدمة فضيحة الفيديو المُفبرك، ثم غياب خطيبي الموجع. كل هذه الأزمات حاولت تخطيها بتماسك مُصطنع، لم أدرك أن التفاعلات القوية داخل جسدي ستلفظ معاناتي على هيئة اعتلال في الجهاز المناعي، والإصابة بالصدفية.

لا أدري إن كنتُ ألوم نفسي أم ألوم هذا العالم المُحبط الذي أعيش فيه. وقع الخبر زلزلني، في اليوم التالي ذهبت إلى العمل برأس شارد، أو على الأغلب بدون رأس، تركته في عيادة الدكتور محفوظ وخرجت. استقبلني طاهر، عامل القهوة الهندي، وضع كوبي على المكتب، سألته (طاهر تعرف الصدفية؟)، ابتسم بارتباك (ما في معلوم والله).

وتحاشياً لتساؤلات الفضوليين ورمقات الوقحين، قررت أن أصبغ أظافري بالطلاء بصورة دائمة، رغم أني لستُ متأكدة إن كان الطلاء يزيد من أوجاع أظافري أم لا. هكذا قررت وانتهى الأمر. يستوقفني أحياناً السؤال (كيف تصلي وبيدك مناكير؟)، فأرد بفجاجة (الفقهيون لم يحرموا المسح على الخفين رغم أن الخف يحجب وصول الماء للبشرة، المناكير نفس الشيء). ترتفع الحواجب بعدها (فقه جديد

هذا يا علياء؟)، نعم أنا القديسة علياء، اصمتوا.

تبريري الظاهري يختلف عن عمق قناعاتي، فأنـا مؤمنـة بـأن الضرورات تبيح المحظورات، وكما يُحلل بعض المتدينين وضع الشعر المستعار للمرأة الصلعاء كي تتماهى مع نساء المجتمع بسهولة، أعامل طلاء الأظافر بالفلسفة ذاتها، تبرير اخترعته لنفسي كي أريح رأسـي من فذلكة المتطفلين. لستُ مجبرة على إقناع أحد ولا أطلب منـهم الإيمان بقناعاتي، خاصة وأن الأمر ليس مُثبت في القـرآن أو السـنة النبوية، هي مجرد اختلافات فقهية، اجتهادات تـؤمن ببـاب سـد الذرائع، دعوني وشأني، لا تصدقوني ولا تحاسبوني. أتذكر نصـيحة والدي لي قبل مرضه، (لا تحاولي إرضاء كل الناس يا علياء حـتى لا تخسري نفسك)، أفكر الآن بإرضاء نفسي، دون الحاجة لتقديم أجوبة تبرر مواقفي.

* * *

الجحيم هو التعامل مع داء مجهول، ألمه الظاهر أشد فتكاً من ورم خبيث مُستتر، أحر من السعير، أبرد من الزمهرير. هكذا رأيت هـذه الصدفية المُعلمة على أظافري، الغامضة المقيتة، فلا هي إنفلونزا أحاربها بدهان الفكس، ولا هو سعال أداهمه بمساج زيت السمسم. أنا التي لم أكن أمرض إلا مع نزلات البرد، لا أعرف إلا الأمراض الموسمية. لطالما اعتقدت أني أنعم بموفور الصحة، للتو أدركت أن الصدفية كانـت تعيش معي دون أن أعلم.

صرتُ أتوتر لحظة صب القهوة في المناسبات والأماكن العامـة، أحاول خطف الفنجان بسرعة كي لا ينتبه الآخرون لمظهر أظـافري

التي أصبحت مُدببة من أثر تراكم القشور، وكأنها أظافر كائن فضائي في أحد أفلام الخيال العلمي.

مشكلة هذا الداء المقزز أنه ظاهر للعيان، فمريض السُكري لا يعلم أحد بإصابته إلا إن نطق، وكذلك مريض القلب والمصاب بالسرطان أو الثلاسيميا أو حتى الإيدز، أمراضهم مواربة، مخفية، بالإمكان التكتم عليها. الصدفية تُعلن نفسها بفجاجة، علاماتها تثير التساؤلات، تلفت الانتباه، تثرثر للآخرين، تسرق مني متعة التماهي مع البشر، تفرض عليّ النمط الشاذ، إنه داء مُستفز. أشعر أن (الأرض تعلقُ بي وتجذبني.. وتشدّ قبضتها على قدمي) كما تقول قصيدة فدوى طوقان.

أتذكر جوليان مور في فيلمها "ما زلت أليس" عندما أصيبت بمرض ألزهايمر، قالت لزوجها (تمنيت لو أني كنت مصابة بالسرطان.. أعني لا أود أن أشعر بالخجل)، نعم الخجل هو الوجع الحقيقي، معاناتنا تبدأ من الخارج وليس الداخل، من الناس، العالم المحيط. جوليان مور كانت قلقة من انعكاس مرضها على علاقاتها بالآخرين، وأنا متوجسة اليوم من الأمر ذاته، أشعر وأن الصدفية تبني حاجزاً كبيراً بيني وبين الناس، كسور الصين العظيم، الممتد من تشنهوانغتاو في الشرق إلى غاوتاي في الغرب.

القلق ابتلاء، الخوف ابتلاء، أظنه أكبر بلوة يمر بها الإنسان، للتو تفهمت معنى الآية **﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشَيءِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفسِ وَالثَّمَرَاتِ...﴾**[1]، نعم مصيبة الخوف تسبق الجوع والفقر والفقد، أن تكون خائفاً يعني أنك

---

(1) سورة البقرة.

تموت ببطء، موتاً غير رحيم، هذا ما أشعره الآن وأنا خائفة.

ومن عاداتي الغريبة والسريّة، أني في كل مرة أتعرض فيهـــا إلى أزمة ما، أقترب ممن هم أشد معاناة مني، أنظر إلى البرامج المصـــوّرة التي تتناول الأوضاع المُزرية للاجئين السوريين داخل المخيمـــات، أسمع نحيب أم ثكلى فقدت ابنها في غارة لقوات الجيش الصهيوني، أرى صور رجل طاعن في السن يبكي اغتصاب ابنته داخل إحـــدى المستوطنات الإسرائيلية. طقوس مؤلمة كهذه هي مـــادة غنيـــة في نشرات الأخبار، أتابعها لأتألم، ثم أشعر أن معاناتي سخيفة وتافهة، وأن الصدفية ما هي إلا شيء بسيط من هذا البؤس الـــذي يحـــيط بالعالم.

أن تتعايش مع مصيبة ألّمت بك، هو قرار لا يتخذه إلا الأقوياء، القوي هو من يتكيّف مع أسوأ الظروف بقلبٍ مُطمئن، والضـــعيف هو من يُحبطه قهر الزمن.. عبارات مُحفزة أردّدها مع نفسي، أدونها وألصقها على زاوية مكتبـــي، وأغرد بها في حساباتي على شـــبكات التواصل الاجتماعي، أغذي نفسي بهذه القوة، لأواجه كـــل شـــيء بقلب بارد.

وما أن وصلت إلى مرحلة التسليم، حتى قررت إخبار والـــدتي بابتسامة لا مُبالية، بعد أن كثرت تساؤلاتها عن أظـــافري، أعطيتـــها الحقيقة بتجرد (أنا مصابة بالصدفية يا ماما). للحظة، رأيـــت الـــدنيا اسودّت في عينيها الجاحظتين، بدا لي أنها تدرك ماهية هذا الداء اللئيم، وهو ما أكدته مسترجعة ذكرى جارتها زهرة في مراكش التي التهمت الصدفية وجهها إلى أن أصبحت (خايبة)[1] على حد تعبير أمي.

---

(1) أي قبيحة بالمغربية.

ابتسمت بتصنع (أنا إصابتي محدودة، كلها كـــم ظفـــر وإن شاء الله تتحسن مع العلاج)، نظرت إلى اللاشـــيء (الله يشـــفيك يا بنتي).

(7)

غصت في محرك البحث، سرق ليلي ونهاري، أقرأ تجارب المصابين والطرق الناجعة معهم، هذا اتبع حمية غذائية قاسية، وذاك قاطع السكر والدقيق الأبيض، وآخر داوم على تناول الأسماك. خلصت إلى أن المرضى الأجانب مؤمنون بكون المعدة بيت الداء والدواء، من هنا قررت البداية، من جهازي الهضمي، من الفم والبلعوم والمريء والمعدة والكبد والأمعاء. لربما تفلح المحاولة، أيكون المرض عبارة عن سموم ابتلعتها ثم تفجرت في جسدي؟ لا أعلم، لكني قررت التجربة على أية حال. عكفت على تناول سمك السلمون الغني بأوميغا 3، ألتهمه صبح مساء، تحمّلت رائحته الزفرة وطعمه الملحي الكريه، كنت أتناول السلمون المدخن وكأني أشرب من مياه البحر الميت، أشعر بسبخة ملحية تعلق في حلقي، رواسب كلوريد الصوديوم تجعلني عطشى طيلة الوقت، أحمل بيدي قنينة ماء، أشرب ولا أرتوي، السلمون يجفف عروقي، يرهقني بالظمأ.

وما أرغمني على مواصلة التهامه، تأييد الدكتور محفوظ، حين سألته عن جدوى ذلك، قال (الأكل البحري ممتاز مع الصدفية، وفي دراسات أجريت على سكان الأسكيمو وتبين أن الصدفية بينهم نسبتها صفر، لأن وجبتهم الرئيسية أسماك البحر.. ركّزي على السلمون يا علياء).

أربعة أيام مرت وأنا أدفع نفسي دفعاً على تناول هذه الوجبة المملة، صرت أبتلع السلمون المدخن بيدي اليمين، وباليسار أسد أنفي بإصبعين، رأتني زينب (وش فيك مغصوبة كأنه دوا؟) قالتها ضاحكة. (هو فعلا دوا، لكن كريه). اقتنصت زينب الفرصة لاستعراض قدراتها في الطبخ وتذوق الأطعمة:

- أنتِ تأكلين المدخن، هذا بارد وخايس، جربي فيليه السلمون، اطبخيه مره مع الكريمة البيضاء ومرة مع الكراميل واستمتعي.
- وأنا عندي وقت للطبخ والنفخ!
- ما يأخذ منك إلا 5 دقائق، مثل الأندومي.

أغرتني زينب، ذهبت إلى أقرب سوبرماركت تميمي[1] في طريق عودتي، قصدت ركن الأسماك، أخذت شريحة من فيلية السلمون الطري، قطعة بحجم كف اليد لكنها باهظة السعر. بحسبة بسيطة فإن تناولي يومياً لوجبة السلمون يعني أن أدفع خمسين ريالاً كل يوم، أي 1500 ريال شهرياً، قيمة السلمون تقترب من راتب عامل القهوة طاهر، قيمة السلمون تفتح بيوتاً، تعالج مريضاً، تسد عوزاً، تُطعم جياعاً. ألف وخمس مائة ريال أدفعها على تناول هذه السمكة ذات البطن الوردي، وكأنه قسط مستقطع من راتبي، لقرض اسمه الصدفية.

لستُ مستاءة لقيمة هذا المبلغ، فهو يعادل ما أدفعه شهرياً على قهوة ستاربكس التي أحتسيها أثناء طريقي إلى العمل. تكلفة السلمون لا شيء يذكر أمام مشترياتي الاستهلاكية، هي متدنية جدا

(1) أشهر مركز للتجزئة في السعودية.

إذا ما قارنتها بالأشياء التافهة التي أقتنيها من حين لآخر. لكن ما يقتلني أني أصبحت أدفع مالي للفرار من ورطة الصدفية التي ابتلعت أظافري وفروة رأسي، وتبتلع اليوم محفظة نقودي. هو شعور بالقهر، فرق كبير بين أن تشتري شيئاً لأنك تريده، وأن تشتريه لأنك مُجبر عليه.

* * *

وصدقت زينب، أصبحت أطهو السلمون في فترة وجيزة، تُحضره لي العاملة المنزلية مُتبلاً بالثوم والملح والفلفل الأسود، فأضعه على الصاج الساخن، ليجهز عشائي. طاب لي طعمه، المشكلة أحياناً ليست في الأشياء ذاتها بل في كيفية معالجتها، الأمر شبيه بحبوب الفول السوداني التي أمقتها وأنفر من رائحتها الكريهة، وحدها شوكولاتة إم أند أمز التي استطاعت تغيير صورتي الذهنية عن الفول السوداني، أمضغه بلذة مع طبقة الشوكولاتة الرقيقة المحيطة به. إنه فن إظهار الجميل في الأشياء السيئة، نعم هو فن، وأنا فنانة لأني تمكنت من قهر طعم السلمون، ما أتناوله يختلف تماماً عن تلك الشرائح السمكية الزفرة، هو طبق فاخر ابتلعه في الصالة، فتختلط رائحة السلمون بعفونة التبغ المنبعث من المنفضة، أتضامن أنا ووالدي على إفساد المكان، ولا تفيد حلطمة سلمى نور الدين. أسمع ثرثرة خالد الضباني، وكأنها خلفية موسيقية في مطعم شعبي، أمضغ طعامي على وقع أحاديثه المكررة، لدي رغبة بالقول (يا بابا ملينا من هالسالفة)، لكني أصمت وأفتعل الاهتمام، أتأمل شعره الأبيض المنكوش كحلاوة القطن، لا أدري أكان فعلاً ذاك الشاب الوسيم

المُعلقة صورته على الحائط، ذا الشعر الناعم المنسدل على كتفيه إبان دراسته في القاهرة؟

كيف للزمن أن عاث بهيئة خالد الضباني إلى هذا الشكل المفجع؟ والدي لا يشبه شبابه، بخدود تحاكي لقيمات رمضان، وشعر متطاير يرفض قصه أو تصفيفه. أتساءل، إن كان الزمن يرسم القبح على أشكالنا، فكيف إن ترافق ذلك مع مرض مزمن؟ هل ترأف الصدفية بحالي أم تزداد شراسة وتنهشني أكثر إن اقتربت من الستين؟ ترى كم تبقى لي من عمر لأتمتع بصحتي وجمالي؟

تفترسني الوساوس ولا أستطيع البوح بها لأحد، لا لوالدي العليل ولا لوالدتي التي تتحرى كل ساعة استجابة لتدعو لي بابن الحلال. الأم، أي أم، سعودية أو مغربية أو كورية أو سنغالية، جميعهن يشتركن في ذات الرغبة، تزويج البنات. وأعلم أن سلمى نور الدين مهمومة بمرضي. هي تخشى أن تبخسني الصدفية حقي، فلا يلتفت لي أحد.

(8)

- من كاتبك المفضل في الشبكات الاجتماعية؟
- أتابع حسابات مختلفة، ثقافية وإخبارية وفكاهية.
- ومن المشايخ؟
- ما في اسم معين.
- عطيني اسم واحد.
- ...... (لم أرد).
- طيّب، إيش مضمون مشاركاتك؟
- متنوعة.
- عندك استعداد تلتزمي بزي محتشم لو توظفتِ عندنا؟
- أنا لبسي محتشم والحمد لله.
- أقصد فضفاض وطويل، مع نقاب إسلامي، وعباءة على الرأس.
- يمكن.

هذا الحوار لم يكن امتحان اختيار كتيبة للجهاد في سبيل الله، بل هو جزء من مقابلة وظيفية أجريتها قبل عامين، وما زالت طازجة في دماغي، كأنها حدثت البارحة، ليس لأن الأسئلة سخيفة وتفتقد الموضوعية، أسئلة تتجاوز الخطوط الحمراء وتمس خصوصية الإنسان المستباحة في نظرهم. بل هي عالقة في ذاكرتي لأني قبلت التجاوب

معها. كنت حديثة التخرج ومتعجلة على العمل، وحـــين وصـــلني إعلان طلب موظفة إدارية في وزارة التعليم، بادرت لتقديم أوراقـــي. اعتقدت أنهم سيسألونني عن مهام الإدارة، عن العمل الجماعي، عـــن التخطيط، عن التنظيم، عن الرقابة، عن التوجيـــه. لم يـــدر بخلـــدي تطرقهم لهذه الأمور الشخصانية. اعتقدت أن التطور الذي نلمسه في كل مكان جب ما قبله، وأن التعاطي المهني هو سيّد الموقف. ربما لو كانت الوظيفة المطروحة تخص العمل الوعظي لكنت تفهمت هـــذه المقابلة البجيحة، وهو ما لم يكن.

أتذكر أني تعاطيت مع هذا الحوار التافه بقبول، ووافقت علـــى تقديم الولاء والطاعة لهذه الثلة من المتطفلات، تنازلـــت، خضـــعت، ركعت لهن ركوع الذليل. ورغم أني كنت أفضل المتقـــدمات إلا أني لم أنل الوظيفة المنتظرة، لسبب واحد فقط. سألتني إحـــداهن قبـــل خروجي (إيش تقرب لك سارة الضباني؟). أجبتها (أختي). رفعـــت رأسها بتعال (إيه أجل، أنتِ بنت المغربية)، ومنذ ذلك الحين لم أعلم أي شيء عن تلك الوظيفة.

الموظفة التي سألتني عن قرابة سارة أظنها حاولـــت أن تقـــتص لسارة مني، هو انتقام اللاوعي، فلا هي التي تعمدت ذلك ولا هـــي التي نصبت الشرك لي، فقط انحازت لصف يضم زوجـــة ســـعودية وبناتها تجاه ابنة المرأة المغربية التي خطفت والدهن.

* * *

لطالما أبكتني هذه الخيبات، و لم أخبر أمي أبداً، سألتني حينها عن سبب استبعادي من تلك الوظيفة، انسحبت بهدوء (أخذوا وحـــدة

شهادتها أفضل مني)، رميت الكرة في ملعبـــي. سلمى نور الـــدين لا تعلم كم هو موحش هذا العالم من حولنا، تركتها منشغلة بصـــندوق عواطف الضيّق، فلو نطقت لأوجعتها.

هذا الإقصاء الخفي يؤرقني، ففي سنوات دراستي تعلّقت بفتـــاة اسمها دانة، زاملتها في مختلف الفصول، وكنت أتشارك معها تنـــاول فطور الفسحة. دانة هذه كانت محط تندر طالبات المدرســـة، كـــن ينعتنها بـــ (بنت الشغالة) لأن أمها فلبينية، وعينيها المسحوبتين بينهما أنف أفنس، مظهرها الخارجي يعكس العرق شرق الآسيوي الـــذي يشكل ملامحها، رغم أنها سعودية الجنسية من طرف والدها. كنـــت أدعمها بكل قوتي، وأدافع عن النقد اللاذع الذي تتعرض له أحيانـــاً من الطالبات المشاكسات، وأنا أدرك داخلي أن لقائي معها ما هو إلا اجتماع بنت الشغالة ببنت الساحرة، هكذا هم ينظرون إلينا.

لا أعلم أين هي دانة الآن، فرقتنا السنوات، كبرنا وتشـــتتنا، لا أدري هل تزوجت أم طاردها خوف المجتمع من أن تنجب أطفـــالاً سعوديين بأشكال فلبينية؟ في مجتمع يتلذذ بلغة التكبر والتفاخر بالأصل والشكل، بالهوامش التي لا تقدم ولا تؤخر. أما أنا ففي كل مرة أسمع سلمى نور الدين تدعي لي بالنصيب وابن الحلال، تتولد لدي رغبـــة كبيرة في الانفجار، كي أجعلها تصحو من سباتها، وتدرك أن الأرض التي نعيش فوقها لا ترحّب بـــي كزوجة أو موظفة أو صديقة أو أي شيء. صحيح أني توظفت في شركة كبرى، لعلاقة أبو فواز الجيـــدة مع والدي. إلا أني مؤمنة أن حظوظي في الزواج ضعيفة في مجتمـــع ينعتني ببنت الساحرة، فكيف عندما أصبحت البنت المصدوفة؟ لقب جديد لا يقل شناعة عن سابقه، فتاة هرب خطيبها بعـــد فضـــيحة

الفيديو، ونبذها الكثيرون لأن والدها مغربيــــة، أي أحمــــق ســـيتقدم لخطبتني يا أمي؟ لطالما وددت أن أنفعل وألقي هذه الكلمــــات أمـــام مسامعها، لكني أرحمها بصمتي، وأصم أذنيّ عن أدعيتــــها الموجعــــة. أتظاهر بالصمم، لأحمي مشاعرها.

* * *

تجارب الحياة علمتني أن العزلة فضيلة، وأن الهروب من الناس سمة الأذكياء. أتحاشى التعليقات السامة بالانسحاب من مجـــالس النسوة الفضوليات، لستُ مضطرة إلى الإجابة عن الأسئلة المتطفلة: ماذا حدث لأظافرك؟ أين ذهب خطيبك؟ متى تتزوجين؟ لمـــاذا؟ كيف؟ كم؟ وكل أدوات الاستفهام الأخرى التي لا تنحرج منها الحمقاوات.

تبرمجت حياتي على العمل فقط، وفي المساء أقضي بقية الوقت في منافسات الشطرنج مع حبيبــي ذي الشعر المنكوش، وأحياناً أخرج إلى العشاء برفقة زينب التي تطلب من النادل وجبتي دون أن تســـألني (فيليه سلمون).

واصلت التهام السلمون لأكثر من أسبوعين، وواظبـــت علـــى المرهم الذي وصفه لي الدكتور محفوظ، لكن لم ألحظ أي تحسن يذكر في أظافري المتنقرة. أحياناً أسحب كميّ عباءتي كل مرة أضطر فيها إلى تقديم أوراق أو ملف ما إلى أحد زملائي، أحاول أن أبدو غـــير مرئية، فالأمر لم يكن بسيطاً كما تأملت. بقيت أحارب هذا الــــداء اللئيم بصمت، أحاكي تجارب المرضى الأجانب، أتحاور معهم عــــبر شبكات التواصل الاجتماعي، أجاريهم في تناول حبوب أوميغا 3 بعد

وجبة الغداء. أمشي لمدة نصف ساعة يومياً. أمارس تمارين الاسترخاء في أوقات متفرقة.

إلا أن حماسي بدأ يتراجع، اجتاحني فتور لا أعرف ماهيته، شيء من الإحباط تسلل إليّ، ربما لأني لا أستطيع السيطرة على نوبات الحزن التي تعتريني في أحيان كثيرة، وفريق الدعم الأجنبي الذي أتواصل معه يركز على أهمية الراحة النفسية، أنا بحاجة للشعور بالبهجة والفرح، كمتطلب رئيس لتحسين حالتي الصحية، وهو ما لا أستطيع عليه، كيف لي أن أبتهج وأنا أتذكر ظلم المجتمع، وخذلان وليد.. آه يا وليد.

(9)

تجمعني علاقة لطيفة مع صباح يوم السبت، أستيقظ مسترخية بعد عناء الركض طيلة الأسبوع، ومشقة العمل الذي يسرق نهاري كله. أتلذذ بالفطور العائلي، طقوس دافئة، تضفي على حياتي بعض الارتياح والطمأنينة. إلا أن صباحي هذا بدا مختلفاً، جماله باذخ، ابتسامة والدتي وبريق عينيها أعادا إليّ ذكرى الصباحات القديمة، وصوت طلال مداح يصدح (تعبت يدي من كثر ما أقدّم الساعة.. ودي تجي قبل الوعد يا مُنى الروح.. كم مرةٍ أخرت أنا ساعتي ساعة.. أكذب عليك إلا نويت أنت بتروح).

لا تسمع والدتي صوت الأرض[1] إلا وهي في أبهج حالاتها، تعشق صوته إلى حد اختياره ليكون المُعبر عن عذوبة اللحظة وطعم الفرح. كانت مُبتسمة وتفاحتا خديها مرتفعتين، وجهها المُمتلئ كالبدر، وانعكاس نور الشمس رسم لمعة جميلة على خديها، منذ زمن لم أرها بهذه الفتنة. قبلت رأسها المضمخ بعطر الياسمين:

- جميلة اليوم يا ماما.
- أنتِ أجمل يا عروسة.

أنا عروسة؟ طيّب، لم أعلق، رغم أن الكلمة مغصت بطني، تركتها تحتسي كوب الشاي المغربي جوار حديقتها المنزلية

(1) لقب طلال مداح.

الصغيرة، بانسجام مع طلال مداح الذي تحفظ معظم أغانيه عن ظهر قلب. والعاملة المنزلية تصف أمامها أطباق الشكشوكة والفول واللبنة بالزيتون، فطور شرقي، تلتهمه والدتي بشهية مفتوحة. لم أرغب بسؤالها عن أي شيء كي لا أُفسد مزاجها الفاخر، كنتُ سعيدة بها إلى حد الخوف من تعكير هذا المزاج الذي افتقدته، واشتقت لحلاوته. اختارت هي البدء (علياء تعالي، كاهضر معاك)[1]، استأذنتها بإعداد كوب قهوة، ردت بحزم (دابا)[2].

(أمري يا ست الكل)، أقترب منها برفقة قهوتي التي حضّرتها على عجل، لم تنتظر كثيراً حتى فجّرت مفاجأتها (أم وليد اتصلت عليّ أمس). أعرف سلمى نور الدين جيداً، تختار اللهجة السعودية حين ترغب بالحديث الجاد. هي تحاول صبغ خبرها الصادم بالأهمية، لكني هزرت كتفي بلا مُبالاة (طيّب).

- إيش إللي طيّب. المره بتزورنا اليوم تجدد خطبتك لوليد.
- حلوة تجدد. أنا أعرف تجديد جواز السفر، تجديد الإقامة، تجديد البيعة. لكن تجديد الخطبة أول مرة أسمع فيها. (ضاحكة).
- يا بنتي خلينا نفرح الله يرضى عليك.

***

(1) أتكلم معك.
(2) الآن.

حمل جديد تضعه سلمى نور الدين على عاتقي، مسؤولية إسعادها، تريد أن تفرح، هكذا ببساطة. دوري أن أصفح وأنسى وأقبل الزواج ممن خذلني في أحلك الظروف. وكأنه الرجل الأخير في هذا العالم. وليد الذي أفاق فجأة من غيبوبته وتذكر خطيئته التي هرب منها ساعة استنجدت به، أي بؤس هذا؟ أعجب من الوقاحة التي سمحت له بالظهور مرة أخرى في حياتي. من أي طِينة عُجنت يا وليد؟ أليس لوجهك ماء أم أرقته؟ للتو عرفت من هو ابن فهرة الذي يتداوله السعوديون في وصف من لا يخجل، الذي إن لم يستحِ فعل ما شاء، وجهك عريض يا وليد، وجه ابن فهرة.

خذلتني بسبب كذبة دنيئة، مقطع فيديو مُلفق، رغم أنك تعلم براءتي منه براءة الذئب من دم يوسف. تركتني أصارع ألم الفضيحة وحدي، هربت خِلسة، خشيت الاقتران بفتاة انتهكت الأكاذيب عرضها. عصر الألم قلبي مرتين، الأولى للفضيحة والثانية لمعدنك البخس الذي كشفته لي تلك الأزمة. واليوم تعود!

أتساءل إن كان وليد الذي نفر مني بسبب شائعة سخيفة رغم جمالي الفاتن ورقة يدي وجمال أظافري حينها، ماذا سيكون رأيه في اليوم بعد أن نهشت الصدفية يدي ورأسي؟ أظنه يجد الآن سبباً قوياً للهروب الأبدي بدلاً من الاختفاء مع كل أزمة تلمُ بي. أمسكت هاتفي المحمول، (أنا مريضة بالصدفية، دوّر زوجة غيري)، أرسلتها له وشعرت براحة كبيرة جعلتني أرمي نفسي على السرير بخفة.

دقائق قليلة، ثم وصلتني الرسالة (سلامتك، إذا ما تزوجتك ماراح أتزوج غيرك).

* * *

أهي محاولة للتكفير عن ذنب؟ أم لا يعلم وليد بماهية الصدفية كما حدث معي لأول مرة سمعت اسمها؟ ربما لا يدرك أن هذا الداء سرق جمال يديّ ونقاوة رأسي وخفة روحي، ربما يظن رسالتي كذبة مُختلقة لامتحانه فأجاب سريعاً كي لا يرسُب في الاختبار، أكان صادقاً أم حاول التذاكي تجنباً للوقوع في الفخ المُحتمل؟

أسئلة كثيرة، بددها حضور أم وليد بعد صلاة المغرب، امرأة ستينية لطيفة، بدا في وجهها الحرج، وفي صوتها الارتباك (اعذروني توفت عمة وليد وتطلقت بنتي مها، والله إننا يا أم علياء من مصيبة للثانية، هذا إللي غيّبنا عنكم كل هالمدة). قائمة من الأعذار حاولت الالتفاف حولها لتبرر غياب ابنها المُفاجئ، أبدت والدتي تفهمها البالغ، وكأنها كانت تنتظر سماع هذه التبريرات (معذورة، الغايب عذره معه).

وأنا صامتة، حائرة، أتساءل إن كان الأمر بهذه السهولة؟ لم يمهلني وليد مساحة كافية للتفكير، في اليوم التالي ذهب إلى ديوانية والدي ليحادثه في الأمر، وقدم له جُملة أكبر من الاعتذارات، تعاطف والدي معه، تفهّم أعذاره، خاطبني بحس الأب (يا بنتي ودي أتطمن عليك بآخر أيامي). هكذا حُسم الأمر، سلمى نور الدين تريد أن تفرح وخالد الضباني يرغب بتسليم الأمانة قبل رحيله، ويبقى عليّ أن أرضخ لطلب من عليّ أن أخفض لهما جناح الذُل من الرحمة.

(بهذه البساطة؟) سألت زينب، التي أبدت هي الأخرى فرحتها (سامحي لنفسك يا علياء، لك إنتِ قبل كل الناس، التسامح يعالج روحك، وعلاج الروح أهم من علاج الجسد).

أقنعت نفسي، ربما عودة وليد تعني أنــه القــدر، المكتــوب، النصيب، الزوج المدوّن اسمه في اللوح المحفوظ. تعاملت مــع الأمــر وكأنه فرض عين، مع إعجاب خفي بتمسكه بــي بعــد أن عِلِــم بمرضي. تبعت قلبــي، وقبلت عودته، وتحدد موعد الزواج، أســابيع قليلة وأعيش معه تحت سقف واحد.

في لقاءاتي القصيرة مع وليد كان يتحاشى التطرق إلى قصة غيابه المفاجئ، وحادثة فضيحة الفيديو؛ وكأنها لم تكن، لم يمر عليها، بدا لي شخصاً آخر يخطبني للمرة الأولى، بعيداً عن أي ترسبات ســابقة أو مواقف عالقة، وكأنه إنسان غير ذاك الذي هرب مني واعتبرني وصمة عار لحادثة أُقحمتُ فيها ظلماً. جاريت وليد في هروبــه، ادعيــت تناسي الماضي، فتحت معه الصفحة الجديدة رغم أن الكتاب ما زال في فصله الأول. اخترت النسيان لأرتــاح، ولأرى وليــد كإنســان جديد، تماماً كما يحاول هو إظهار نفسه.

كنت أكتم فرحة خفية بعودة وليد، رغم العتب، والغضــب، والخذلان. سعدت بعودته صامتة، خبأت فرحتي، لم أظهرها لأحــد، تصنعت اللامبالاة. كنت أتوق إلى حياة جديدة، ورجل ينتشلني من ألسنة الفضوليين، وليد هو الرجل الوحيد في حياتي، لذا قبلت، لترميم جراح قلبــي.

* * *

اقتربت ساعة الصفر، بدأت أحضر نفسي، لم يفسد فرحتي إلا استرجاع تحذير الدكتور محفوظ (الحمام المغربــي ممنوع، الليفة ممكن تثير الصدفية بجسمك). للتو شعرت بقسوة هذا التحذير، أنا المعتــادة

منذ البلوغ على دعك جسدي أسبوعياً بالليفة السوداء، لا أتخيل كيف أزف إلى عريسي دون هذ التقليد الأنثوي الخاص والحميمي جداً، صحيح أني منذ أسابيع توقفت عن الحمام المغربي، لكني منذ ذاك الحين لم أشعر بتلك الانتعاشة اللذيذة التي كانت ترافق ضبابية البخار وحماسة الفرك ورائحة زيت الزيتون الزكية. أشعر أني متسخة، وكأن جسدي بات ثقيلاً، فقدت ذاك الإحساس بالخفة، شعور لا يفهمه إلا النسوة المعتادات على الحمام المغربي. خيبة الأمل هذه انتقلت إلى والدتي، اعتبرت الدكتور محفوظ لا يفهم. لم تستوعب سلمى نور الدين أن عروساً ستزف إلى عريسها وهي لم تغتسل وتدعك جسدها بالصابون البلدي، هي مثل بقية المغاربة ترى الحمام وسيلة لإزالة الجلد الميت. هذا يعني أني سأزف بجلد ميت، عروس باهتة، مُحبط هذا التوصيف، إلا أنها طبطبت عليّ بثنائها وهي تؤكد أني (زوينة بزاف)[1]، تمسح دموع الفرح، تعانقني في ليلة العمر، وتذكرني بقراءة المعوذات قبيل ذهابي إلى صالون التزيين.

وتأمّر عليّ الصالون الذي قصدته، دخلت غرفة تحضير العرائس، فتيات فاتنات تبدأ رحلتهن مع كرسي تنظيف الأظافر الذي أجبرتني الصدفية على هجره، لم تستوعب المُزينة السورية ذلك (هاي ليلة العمر شو ماراح تعملي مانيكور؟). ادعيت أني نظفت أظافري بصالون آخر، واكتفيت بوضع طلاء باللون الأحمر، لإخفاء النقرات التي تغطي أظافري.

---

(1) جميلة جداً.

(10)

لا يهمني في الرجل أن يكون وسيماً أو مثقفاً أو غير ذلك من الأوصاف البراقة. ما شدني إلى وليد نظافته، نعم، الرجل النظيف فاتن، وإن كان قبيح الشكل. فلا قيمة لوسامة رجل لا يستحم يومياً ورائحة جسده تنبعث بالغازات السامة، ماذا عساي أفعل برجل حكيم ومثقف لكنه لا يغسل أسنانه بعد وجبة الطعام؟ كيف لي أن أُقبله؟ فالقبلات لدي كزوجة أهم من الحديث في أخبار المجتمع وجديد السوق.

وليد رجل عادي، هكذا ينظر إليه كثيرون، لكنه لامسني بنظافته، وهنا رأيته فوق الاعتيادي، فالنظافة هي الشيء الذي لا نكتشفه إلا بعد العشرة. شدني هذا الأسمر بأسنانه البراقة التي يُلمّعها بالخيط بعد كل وجبة، أثارني برائحة جسده الفواحة بعد الاستحمام. لا يعلم وليد أني أستنشق الحمام من بعده باستمتاع، أشتم رائحة النعناع والليمون التي تحويها غسولاته والمختلطة بعطر شامبو جونسن للأطفال المفضل لديه، ثم يختم استحمامه ببخاخ الإبطين الذي تشبه رائحته دهان الفيكس. كل شيء في الحمام يفوح نظافة وانتعاش، وليد كان شديد الاعتناء بجسده، وهذا أثارني وجذبني إليه بسرعة.

هذه الفئة من الرجال، رغم النظافة والهندمة، إلا أنها فئة دقيقة جداً تجاه كل شيء، هم مولعون بالتفاصيل، وهذا ما لفتني بوليد،

فكثيراً ما ينتبه لأمور لم أنتبه لها أنا، هو دقيق مع نفسه قبل غيره. كانت هذه ملاحظتي الأولى تجاه وليد، ورغم جمال الملاحظة، إلا أني كنت أرتبك في كل مرة أتذكر فيها التشوه الذي ألم بأظافري وأطراف فروة رأسي، أفكر في نظرة الاشمئزاز التي قد تصيب وليد، وتقتلني.

بقيت على طلاء الأظافر، ألوّن أظافري كل فترة بلون جديد منعش، بألوان الصيف، وأسرح شعري بشكل منسدل لإخفاء الصدفية المختبئة فوق أذناي. وكانت حماستي تزداد مع إعجاب وليد بأناقتي، فما لفتني إليه لفته أيضاً إليّ، الهندمة وتدليل الجسد والاعتناء بالمظهر الخارجي. عرف وليد هوسي بالأحذية والعطور، كنت أتباهى بالكعب العالي الذي يُظهر مفاتن جسدي ويبرز أناقتي، وبرائحة العنبر التي أعشقها، يصفها وليد بـ (ريحة شهر العسل).

الأمور المشتركة بيني وبينه لم تقتصر على ذلك فقط، أنا وهو ذائقتنا في الطعام واحدة، نمقُت البهارات والمأكولات الحارة وتلك التي تنبعث منها رائحة البصل والثوم. أخبرت وليد عن ولعي بالسلمون، وحاجتي الصحية إليه، فأبدى حماسة لمشاركتي التهام لحمها الوردي، هذه المعلومة أراحتني كثيراً، فلا شيء أفضل من الاتفاق مع من تحب في مكانين: مائدة الطعام وفراش النوم.

* * *

غطست مع وليد في لذة العسل، في البدايات التي يحاول فيها كلا الطرفين إظهار أفضل ما لديهم، هكذا مرت أيامي الأولى، هادئة، لطيفة. في رحلة على شواطئ المالديف، نتعانق أمام البحر،

نتأمل غروب الشمس، نلتهم الأناناس وجوز الهند، نضحك ونوثّق أجمل اللحظات بالصور.

تحسنت أظافري إلى حد ما، تقلصت قشور الصدفية التي كانت تُعلّم على جوانب فروة رأسي، بدأت أستعيد ثقتي بنفسي، أو جزءاً منها، أقبلت على الحياة بروح عالية. زواجي بوليد انتشلني من البؤس الذي عشته لحظة اكتشافي الإصابة بمرض الصدفية، توقفت عن التفكير في هذا الداء ومتابعة علاماته على يدي ورأسي، تجاهلته، وأصبحت منشغلة بملذات شهر العسل ومتعة اكتشاف عالمي الجديد.

عدنا بعد ثلاثة أسابيع، وأكملنا تأثيث شقتنا الصغيرة التي اخترناها في حي الدوحة بالظهران. وبعدها بأسبوعين رجعت إلى عملي في أرامكو، ولاحظ الجميع مسحة البهجة التي زيّنت وجهي، والفرح المتراقص في عينيّ، سعيدة إلى الحد الفاضح، الواضح، هكذا بدوت في أول ثلاثة أشهر من زواجي. ظل خلالها وليد ودوداً كما رأيته للمرة الأولى، معي ومع والدتي التي اعتبرته مثل ابنها، كانت تطهو البسطيلة المغربية لأجله، وهو ما يبادله بالامتنان الفائق عبر الهدايا البسيطة التي يقدمها لها ما بين زيارة وأخرى، تمر خلاص من الأحساء، خضروات طازجة من مزارع القصيم، زيت زيتون من الجوف. وفي كل مرة يقول (هذا طالبه مخصوص لك يا خالة)، فتبتسم والدتي، وأكتم ضحكتي لأني أعلم أنه يقول نفس العبارة لكل من يهديهم.

يمازحني وليد أمام أهلي وأهله بلقب أم سليمان، (جت أم سليمان/أخرتّنا أم سليمان/فديت أم سليمان). اختار اسم ابننا الأول تيمناً بوالده الذي توفى قبل سنوات، أخبرني أن هذا لقبه منذ المراهقة،

بين أصحابه وزملائه في العمل. سألته مرة (ولو جتنا بنت؟)، غمـز ضاحكاً (نسميها سليمانة).

روح الدعابة التي ميّزت وليد سحرتني، أنا الفتاة الجادة، وربما ثقيلة الظل، وجدت فيه ما يكملني. ووجد هو داخلي السكينة والاطمئنان، وكأننا النصف الذي التصق بنصفه، كلانا وجد ضالته في الآخر. أصبحت مولعة بالأفلام الأمريكية التي تستهوي وليد، نسهر معها ليلاً، أحياناً أنام في أحضانه كطفلة صغيرة، وأسأله لاحقاً عن نهاية الفلم. وفي الصباح نتناول قهوتنا السوداء سوياً ثم أخرج معه في السيارة، نستمع إلى موسيقى الصباح، ينقلني إلى عملي ثم يتوجه إلى عمله، ونتواصل مع بعضنا بقية النهار بالرسائل والأحاديث العابرة. وفي المساء نجتمع على وجبة العشاء، في المنزل أو في أحد المطاعم.

كُنا كأي عرسان جدد، نمشي بزهو، نمسك أيدينا في الأماكن العامة، نضحك سوياً، نُظهر أجمل ما فينا. اندمجنا مع بعضنا بسرعة عجيبة، خفة الروح التي يتمتع بها وليد أوقعتني في حبه، مع مسحة من الحنان الذي منحني إياه بذكاء، لم يكن يُقبّل يدي كعادة الرجال المحبين، بل يُقبل أطراف أصابعي، أظافري تحديداً، في رسالة نبيلة أشعر بمعناها، فيزداد اطمئناني.

(11)

ذات صباح، وبعد ليلة حميمية قضيتها مع وليـــد، اســتيقظت وهممت لأخذ حمام ساخن قبيل ارتداء ملابسي، استوقفتني حينـــها علامة بيضاوية على طرف كتفي اليمين، تأملتها في المـــرآة طــويلاً. خرجت من دورة المياه، ووجدت وليد يضع الكـــوب في ماكينـــة القهوة.

- صباح الخير حبيبـــي.
- صباح النور، متأخرة اليوم.
- في علامة غريبة على كتفي. (اقتربت منه ليراها).
- تكريزة[1] (مبتسماً). كويس طلعت بكتفك.

أحرجني تعليقه، ابتسمت وارتديت عباءتي استعداداً للذهاب إلى العمل، وتناسيت هذه العلامة البيضاوية التي تحوّل لونهـــا لاحقـــاً إلى الرمادي الفاتح، مع قشرة صغيرة لم أفهمها، أو بالأصح لم أحـــاول فهمها. بعد أسبوع وجدت علامة جديدة متناظرة معها على كتفـــي الأيسر، كان شكلهما لافتاً على بشرتي البيضاء الندية، بدت هاتـــان العلامتان وكأنهما بقع حبر سقطت على ورق دفتـــر. بـــدأ القلـــق يعتريني، وقفت عارية أمام مرآة الحمام، أتأمل هاتين العلامتين، أتذكر سؤال الدكتور محفوظ (في علامات بجسمك؟)، كنت دائماً أنفـــي،

(1) بصمة هيكي، عضة جنسية.

فهل هذه هي صدفية الجلد التي كان الطبيب متوجساً من ظهورها؟

عدت للقلق بعد أن توقفت عن تفقد أظافري، صرت أكتفي بوضع طلاء الأظافر، وأحياناً أجنح إلى تركيب أظافر اصطناعية، وفي الحالتين يكاد لا ينتبه أحد، لكن جسدي لا يمكنني طلاءه أو تركيب طبقة اصطناعية فوقه، الأمر مختلف تماماً، من الصعب تغطية هذه العلامات المستفزة.

لم أمهل نفسي الكثير من الوقت هذه المرة، احتفظت بتخميني لنفسي، مخافة إقلاق وليد بهذه الاحتمالية، ثم طلبت موعداً عند الدكتور محفوظ، وذهبت إليه ظهراً بعد أن استأذنت من أبو فواز. تفقد الدكتور محفوظ هذه العلامات البيضاوية التي تشبه السمك الصغير، وقال بصوته الرخيم (صدفية نقطية). عقدت الصدمة لساني، نظر إليّ بحنان أب (لا تخافي، بتروح إن شاء الله إذا داومتي على العلاج).

* * *

خرجت من المستشفى برفقة مجموعة من مراهم الكورتيزون التي وصفها لي الدكتور محفوظ، اختار مرهماً أقوى من سابقه، وهو يذكرني بضرورة الالتزام بالعلاج. لم أجزع كما حدث معي في المرة الأولى التي تعرفت فيها إلى الصدفية اللعينة، بل كنت حائرة، والأسئلة تعصر رأسي، فإن كانت الضغوط النفسية من أكبر احتمالات إصابتي بالصدفية فلماذا تعود لي اليوم وأنا أعيش أجمل أيام عمري؟ هذا الداء الشرير يحاول انتزاع جمالي وحيويتي ببطء قاتل، أربكني حضوره بهيئة مختلفة، وكأنه يؤكد نفسه أمامي، خشيت أن ينهش جسدي كما

فعل بأظافري. تذكرت زهرة المغربية التي أخبرتني أمي أن الصـــدفية التهمت وجهها، تلمست وجهي بخوف، وكأني أحميه من هذا الداء اللعين.

لم أكن بحيويتي المعتادة، انتبه وليد (وش فيك علياء؟)، بابتســـامة صفراء (سلامتك بس انضغطنا اليوم بالشغل)، حاول وليد الاقتـــراب مني، تمنعت وتعذرت بتعبـــي، دخلت إلى غرفة النوم، دسست نفسي تحت غطاء السرير، كعادتي حين أتألم بصمت.

تكرر هذا المشهد بيني وبين وليد في الأشهر اللاحقة، لم يفهـــم هو سبب ابتعادي التدريجي عنه، كنت جيدة معه في كل شـــيء إلا الاقتراب الجسدي، بتُ أشعر بالحرقة كلما لمسني، فأتعلل بأي شيء لأنصرف، ويقابل هو صدي بالصمت، ثم بدأ يفتعل المشكلات كي أنطق، لكني لم أنطق.

استبدلت ملابسي القصيرة بأخرى محتشمة، بأكمـــام طويلـــة، ألبسها في عز الحر كي أستر بقع الصدفية التي تتسلل ببطء لجسدي، نقط الصدفية تكاثرت على كتفيّ وذراعي وظهري بصورة مقـــززة، صرت أنحرج من وليد، أرتبك إن وقع نظره علـــيّ، ثقـــتي بنفســـي اهتزت، أقفل على نفسي دورة المياه، لأبكي بصـــمت، ثم أغســـل وجهي وأخرج متصنعة الابتسامة، كي لا يشعر بثقل الهم القـــابع في صدري.

وكي أخفي صدفية رأسي، أضطر دائماً إلى فرق شعري مـــن المنتصف، لأطمس جوانب الصدفية التي تلامس طرفيّ جبهتي. صرت أضع لصقا للجروح على أكثر الأصابع تضررا والتي تورمت أظافرها بصورة بالغة. استبدلت النعال المنزلي المفتوح بآخر مغلق من الأمـــام،

كي لا يتبين إبهام قدمي المقزز. وكلما توجست أكثر زادت الصدفية شراسة وانتشاراً، تعاندني وتستمتع بقهرها لي.

بعد سبعة أشهر من زواجنا، سألني وليد عن سبب حرصي الدائم على إغلاق أنوار الغرفة أثناء العلاقة الخاصة، لم أعطه جواباً محدداً، تارة أتعلل بالخجل وتارة أصمت، خشيت إخباره أن العلامات انتشرت في ظهري وساقي، وأن مراهم الكورتيزون تلعب معي، تختفي العلامة من كتفي فتعود في ظهري، تبديل أماكن لا أكثر.

إلى أن جاءت تلك الليلة القاتلة، الليلة الأصعب منذ عرفت وليد، اقترب مني، حاولت صده وعجزت، أطفأ الأنوار ثم عاد للاقتراب، لمس ظهري، قفز بعدها وكأن عقرباً لدغته، خرج من الغرفة، ارتديت ملابسي ولحقته بعد دقائق، كان في الشرفة يُدخن وهو يتأمل سكون الليل، مكتفياً بارتداء سرواله الداخلي، لم يكن مكترثاً بأن يراه أحد، بدا مُغيباً عن العالم.

اقتربت منه، مازحته (سلامات يا أبو سليمان)، لم يرد، وكأنه لم يسمعني. أطفأ سيجارته بهدوء، التفت إليّ (ممكن أعرف إيش القشور إللي بجسمك؟)، فهمت وقتها سبب نهوض وليد جزعاً من السرير، حين لمست يده خشونة العلامات المنتشرة في ظهري، تحسسها، تقزز منها، رغم أنه لم يرها، فقط لمسها. شعرت بارتباك، تمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعني كما انشق البحر للنبي موسى وأغرق فرعون وجنوده.

عاد صوت وليد (أنا سألتك وانتظر الجواب)، تلعثمت، أجبت بصوت يشبه الهمس (صدفية).

***

كانت الليلة الأولى التي ينام فيها وليد في الصالة، أخـــذ مخدتـــه وتلحف بالغطاء ونام على الأريكة، بصمت مقلق. وسهرت أنا على السرير، غضبانة من وليد ومشفقة عليه في آن واحد. بقيت على حالي إلى أن أذن الفجر، صليت وبكيت، دعوت الله بإلحاح أن ينقذني من هذه المحنة، خشيت على صحتي، على زواجي، حياتي بأكملـــها. ثم عدت إلى السرير، أرسلت لزينب (أنا تعبانة ماراح أجـــي اليـــوم)، تصنعت النوم، وأنا أسمع خطوات وليد وهو يرتدي ملابسه ويذهب إلى عمله دون أن يلتفت إليّ.

(12)

استمر صمت وليد ثلاثة أيام، تحاشى الجلوس معـــي في نفـــس المكان، يخرج، يدخن، يثرثر بالجوال، يفعل أي شيء عدا أن يـــراني، وكأنه يعيش بمفرده. لا أعلم أهو غاضب من انتشار الصدفية أم مـــن تكتمي وصدي عنه في الفترة الماضية؟ في مساء اليوم الثالث، وضـــع أمامي ورقة.

- هذا كارت موعد عند الدكتور نجيب في مستشفى الـــدمام المركزي، أحسن من دكتورك التعبان.
- ... (لم أرد).
- بكرا الساعة عشرة ونص الصباح.
- توصلني؟
- لا عندي اجتماع، اطلبـــي سيارة أجرة.

كانت المرة الأولى التي يعتذر فيها وليد عن مهمة إيصالي منذ تزوجنا، للمرة الأولى ينسحب باختياره من هذه المهمة التي التـــزم فيها لنحو سنة مرت على زواجنا. لم يعد يهتم؟ أم تلاشى اهتمامه بـــي؟ أربكتني هذه الأسئلة، أربكني الموقف بأكمله، واكتفيـــت بالصمت.

في اليوم التالي، تغيبت عن العمل، كي أســـتطيع الـــذهاب إلى الموعد في المستشفى الذي يبعد أكثر من نصف ســـاعة عـــن بـــيتي.

ارتديت عباءتي في التاسعة والنصف صباحاً، وقبل أن أهم بطلب سيارة أجرة، اتصل وليد (أنا بالطريق جاي)، لم يمهلني وقتاً للرد، أغلقت المكالمة وجلست أنتظره، وأنا متعجبة لتغيير رأيه، هل أنبه ضميره؟ أم ندم على فظاظته معي في الأيام الماضية؟

ركبت سيارة وليد، جيب نيسان بيضاء اللون، كان يدندن مع أغنية الراديو، توقف جوار قهوة الطريق، فتح النافذة للبائع (اثنين كابتشينو)، ناولني أحدهما (خذي يا الزعلانه). عرفت طريقته في استرضائي، اعتذار مُبطن قبلت به على أي حال. اتجهنا إلى المستشفى، دخلنا على الدكتور نجيب في الموعد المحدد، بدأ لي بشوشاً وثقته بنفسه عالية، فحصني على عجل وألقى الأسئلة التي اعتدت عليها، ثم صمت وأخذ نفساً عميقاً، قبل أن يقول:

- الكورتيزون ما يفيد بحالتك، لازم كورس ميثوتريكسيت.
- وإيش يطلع هذا؟ (سأله وليد).
- علاج قوي، لكن نتائجه جيدة، أهم شيء تنسي موضوع الحمل سنة على الأقل، لأنه يسبب تشوهات خطيرة في الأجنة.. لازم تأخذي مانع قوي.
- دكتور هذا العلاج يستخدمونه لمرضى الأورام السرطانية؟ (سألته بخوف).
- نعم.

* * *

أتذكر أني مررت على الميثوتريكسيت أثناء بحثي في غوغل عن علاجات الصدفية، وقرأت عن مضاعفاته الخطيرة، لكونه أحد الأدوية المثبطة للمناعة والمدمرة للكبد والرئتين على المدى البعيد. حديث الدكتور نجيب شتّت عقلي، أوجع قلبي. خرجت من المستشفى بتثاقل، ركبت السيارة، التفتُّ إلى وليد (أنا خايفة من العلاج)، لم يرد، كان ينظر إلى الطريق ويقود بسرعة، اقتربنا من المنزل، (وليد وش فيك؟)، أوقف السيارة بانفعال:

- فيني إني أبغى عيال، فيني إن عمري خمسة وثلاثين، من حقي أصير أب.
- هذا إللي هامك؟ توقعتك خايف عليّ.
- أنتِ أنانية، تفكرين بنفسك وبس.
- أنت تزوجتني وعارف إن فيني صدفية!
- في أظافرك وبلعناها. أظافرك يا مدام، مو بجسمك، ولا بأدوية تقطع الخلفة.
- أنت تعترض على حكم ربك يا وليد؟
- آوه بدينا بالدين، إذا تورطتي كلمتيني بقال الله وقال الرسول. إنزلي تأخرت على شغلي.

ضربت باب السيارة بعنف، كأبسط تعبير أنثوي عن الغضب، ولم أنتبه لصراخ وليد من خلف النافذة، شعرت للحظة أنه كائن آخر بعيد عني، كبعد زُحل عن المشتري. بكيت، إنها ورطة جديدة، انفعال وليد أفزعني، كلمته (بلعناها) أغاظتني إلى الحدّ الذي جعلني أفكر بإنهاء هذه العلاقة الزوجية الخانقة. كان بإمكان وليد الانسحاب باكراً كما فعل في حادثة فضيحة الفيديو، لكنه أكمل الطريق

باختياره، هو من بحث عني، هو من ألح بطلب الزواج مني، رغم علمه بظرفي الصحي، واحتمال تطور المرض. والآن يشعرني وكأنه تفضّل عليّ بهذا الزواج، الآن يخذلني في أول أزمة تواجهنا، بدلاً من أن يكون سنداً لي. لستُ أفهمك يا وليد، هل أنت نادم على زواجنا؟ وهل من المفترض أن أفكر الآن بألم خيبتي فيك أم بتداعيات العلاج الذي أوصى به الدكتور نجيب؟ آه نعم، الدكتور نجيب، ألم أذهب إليه بناء على طلبك؟ الآن أراك حانقاً من حديثه، ليس لأجلي أنا، بل لأجل الأطفال الذين تريد إنجابهم، فضّلت سليمان وسليمانة عليّ قبل أن تراهما!

* * *

بدّلت ملابسي على عجل، طلبت سيارة أجرة وذهبت إلى والدتي، وما أن دخلت عليها حتى تعجبت من زيارتي المفاجئة، (لا بأس عليك كيداير؟)[1]، طمأنتها، (توحشتك)[2]، ضممتها بشدة، استنشقت رائحة عطرها الياسميني الزكي، عادت لتكرار السؤال عن حالي وحال وليد، ابتسمت لها وفي عيني دمعة، ابتعدت والدتي فجأة وكأنها خشيت سماع ما تكره، تعللت بتحضير الغداء.

أخبرتني أن والدي في الصالة، ذهبتُ إليه، كان مستلقياً يتابع نشرة الأخبار التي يدمنها على قناة العربية، دخلت بهدوء (بابا)، التفت (هلا بحبيبة أبوها)، قبّلت رأسه وشعرت لوهلة أن الهم انزاح عن صدري، كان يحتسي كوب الشاي وهو يتندر بأوضاع الدول

---

(1) كيف حالك، هل أنت بخير؟
(2) اشتقت لك.

العربية وحماقات الرؤساء. ما زال خالد الضباني كما هو، لم يتغير، مهما شاب شعره وثقل لسانه وتجعد وجهه، لم ينسَ ولعه بالسياسة، وكأنه يحاول البقاء كما كان، رغم المرض وتقدم السن الذي نهش جسده وبعضاً من ذاكرته.

سألني السؤال الذي فات والدتي (ما عندك دوام؟)، أومأت برأسي (إلا عندي بس استأذنت لأن شايي وحشني)، ضممته وهو يضحك، لتدخل والدتي وتخبرنا أن الغداء جاهز. شعرت بألفة وحنين كبيرين لهذا البيت الدافئ، وشوق لطعم الحريرة الشهية التي تصنعها سلمى نور الدين، احتسيتها بلهفة. كانت والدتي تسترق النظر إليّ وهي تسكب الطعام، تجاهلتُ الأسئلة المفضوحة في عينها، لم أنتبه للوقت الذي مرّ بسرعة، ولوليد الذي عاد إلى المنزل و لم يجدني، أرسل لي (وينك؟)، اكتفيت بالقول (أتغدى ببيت أهلي)، بعدها بدقائق (طيّب، بجي أخذك بعد المغرب). أخبرت والدتي التي تنفست الصعداء حين علمت أني سأعود برفقة وليد.

وقبل ذهابي، سألتني (كيف صدفيتك؟)، لامس سؤالها قلبي، للمرة الأولى تسألني بهذا الوضوح، وكأنها قرأت ما في عينيّ. أخبرتها أني لا زلت أتابع لدى الطبيب، فجأة ذهبت إلى غرفتها ثم عادت بسرعة، وبيدها قنينة زجاجية سوداء، (هذا قطران أرسلته خالتك رشيدة من المغرب)، كانت همس وكأنها تخشى أن يسمعنا أحد، جلست تشرح لي طريقة استعمال السائل الأسود، مؤكدة أن مفعوله كالسحر، وأفضل من الدكاترة الذين تقول عنهم (كيضحكوا عليك). أنساني حديثها مشكلتي مع وليد، وكأن الله أرسلني إليها في هذه الساعة لأخرج بحل جديد، طمأنتني ثقتها بقدرة هذا السائل على

محو الصدفية، كانت تستشهد بزهرة جارة أهلها في المغرب، وكيف تعافت بعد استمرارها على مسح جسدها بالقطران، كلامها بث لي الأمل من جديد.

في تمام السابعة، أخبرني وليد أنه في الخارج، دسست قنينة القطران في حقيبة يدي، قبلت رأس والدتي وهي تذكرني بقراءة المعوذات وأدعية درء الحسد والعين، وتوصيني بطرد الشياطين عن نفسي وزوجي، (حصني نفسك.. حصني نفسك).

(13)

أكره رائحة الموز، الفاكهة الوحيدة التي لا أستسيغها بسبب رائحتها، تماماً كما كانت علاقتي الفاترة تجاه السلمون، علاقتي بالأشياء تبدأ من أنفي، وهذه المعضلة واجهتني مع رائحة القطران النفاذة، كريهة، تشبه النفثالين. هذا عدا عن اللون الأصفر القاني الذي يعلق بأي شيء ينسكب عليه، يصطبغ بالأشياء، قوته أشد من الكركم والزعفران. هكذا بدا لي القطران للوهلة الأولى. الأمر الذي جعلني أتخوّف من استخدامه، خبأته في خزانة داخل المطبخ، بعيداً عن عيني وليد، الذي منذ ركبت سيارته للعودة إلى المنزل وهو يشاغبني، كعادته إن شعر بالخطأ في حقي، يتلطف معي، يغازلني، إلا أني لم أنسق له هذه المرة، بقيت صامتة، ولا شيء يُقلق الرجل كصمت المرأة.

رجعت الحياة لاعتياديتها، عمل منزل، عمل منزل، تصنّعت الانهماك بعملي كي لا أتصادم مع وليد في جلسة حوارية من أي نوعٍ كان، لكنه لم يصمد طويلاً، هو يغضب سريعاً ويرضى بالسرعة ذاتها، نَفَسه قصير دائماً. باغتني وأنا أشاهد أحد مقاطع الفيديو على الجوال (وش قررتِ بعلاج الدكتور؟)، بهدوء أجبته (ماراح آخذه). حاول وليد تخبئة الدهشة والفرح اللذين لاحا بوجهه مصطنعاً الامتعاض (ليه؟)، أخذت نفساً عميقاً (أضراره الجانبية خطيرة على

صحتي، أفكر أخذ رأي دكتور ثاني). همهم وليد (صح لا نستعجل)، النون في رده أشغلتني، هل علاجي شأن مشترك؟ مسألة أسرية؟ حالة تستوجب الحديث بصيغة الجماعة؟

أنا أجبته بصدق، قلقي من الآثار الجانبية للميثوتريكسيت جعلتني أتوجس منه، قلبي ليس مطمئناً، لذا قررت أن لا آخذه وأنتهى الأمر، على الأقل حتى أتأكد من جدوى القطران الذي ما زلت أتحين فرصة استخدامه، أنتظر أن يسافر وليد في رحلة عمل أو ينشغل مع أهله وأصحابه، لكنه لم يفعل.

كلما ابتعدت، اقترب وليد، لا أدري هل إحساسه بالذنب دائماً ما يجبره على الانجذاب إليّ، أم أن الرجال بطبيعتهم يستمتعون بحالة المد والجزر في العلاقة. إلا أني لم أسع لابتزازه أو إخضاعه، هي مسألة قهرية، انغلقت فجأة، وُصد الباب على قلبي، انسحبت من سهرات الأفلام وجلسات القهوة ومزاح ما قبل النوم، بقيت هكذا عشرة أيام، إلى أن هاتفني وليد في استراحة العمل (تجهزي بنروح البحرين المغرب، ومالك مجال تعتذري). وضعني أمام الأمر الواقع فقبلت، عدنا إلى المنزل في الخامسة، وبعد حمام دافئ تأنقنا وذهبنا، أخذني إلى متجر للمجوهرات، وطلب من البائع عرض أفخر الخواتم، (لازملك خاتم فخم) قالها غامزاً. عرض علي البائع خاتماً مرصعاً بالألماس البلجيكي. (عجبك؟)، سألني وليد، (أنيق!)، وهنا قرر شراءه. بعدها تناولنا العشاء وعدنا إلى الظهران في تمام الحادية عشرة. لم يكتف وليد بذلك، التصق بظهري قبل النوم، فهمت مراده، وأعطيته إياه. شعرت بارتياحه، وكأن حملاً ثقيلاً انزاح عن صدره، بذل وليد كل المحاولات الممكنة، أو هكذا يظن. إلا أني لم أستطع

الصفح هذه المرة، صحيح أن المياه عادت إلى مجاريها، لكنها لم تعد صالحة للشرب.

* * *

حصل ما انتظرته، أخبرني وليد أنه ذاهب في دورة عمل إلى جدة، مدها أسبوع، سألني الذهاب معه في إجازة قصيرة، فتعذرت بضغوط العمل. سافر وليد مساء السبت، ودعته، ثم ذهبت إلى خزنة المطبخ، أخرجت القطران، (بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء) تمتمت بتوجّس، وأحضرت أعواد قطن تنظيف الأذان، أغمس رأس العود في قارورة القطران، ثم أمسح بها على بقع جسدي ورأسي وحول أظافري. فاحت رائحة القطران في الصالة، مما جعلني متيقنة لقراري في تأخير استخدامه إلى حين ذهاب وليد. تدهّنت بالقطران، ثم نمت، وعندما صحوت واغتسلت، بدا لي وكأن صبغة القطران التصقت بجسدي، هي أشبه بلون الحناء الأحمر، لكن بدرجة أفتح. لم أهتم، وفي المساء كررت الفعل نفسه، تدهّنت بالقطران ثم نمت، وبعد أسبوع لاحظت تحسناً بسيطاً في علامات الصدفية المعلّمة على ظهري وفروة رأسي، شعرت بسعادة غامرة، ولم أكترث لتعليقات زميلاتي (مسمرة يا علياء)، فلا يهمني إن كنت سمراء أو بيضاء أو سوداء، الأهم أن أتخلص من الصدفية، تفاءلت بكونها في الطريق إلى الزوال، صحيح أن الأظافر اللعينة لم تتحسن قيد أنملة، لكن النتائج التي لمستها في ظهري ورأسي مرضية إلى حد ما.

عاد وليد مساء الأحد، كان متلهفاً للقائي، بعد العلاقة الحميمية ضحك (زان ظهرك لما سافرت)، لم يكتشف سري الصغير، القطران

الذي أذاب ندوب الصدفية، وأذهب البقع الخشنة عن ظهـــري. لم أخبر وليد أني كنتُ أتدهن مساء بالقطران، وأنام به طيلـــة الليـــل، مرتدية بيجاما قديمة خصصتها لهذه المهمة، وفي الصباح أخذ حمامـــاً دافئاً وأدهن جسمي بالفازلين قبيل ذهابـــي للعمل. طقوس مارستها بصرامة على مدى سبعة أيام، ويبدو أنها أتت أكلها اليوم. تعليق وليد طمأنني، وزادني حرصاً على إخفاء سري، فالمرات الماضية التي اختبرته فيها كانت كفيلة بنحر الثقة بيننا، لستُ مضطرة لإبلاغك يا وليـــد، لن أتقبل شماتتك أو حنقك، ولن أصفح عنـــك مهمـــا تغزلـــت أو اشتريت لي من أحذية ومجوهرات. قررت وانتهى الأمر. لن أخبرك.

(14)

صمود أظافري أقلقني، بقيت عصيّة على القطــران، رغــم أن أصابع يدي نشفت وتحوّل لونها إلى أسمر باهت، وكأنها يد عامل بناء، متعبة، جافة، من آثار السائل الكريه، دون فائدة. ربما لأنهـا المكـان الوحيد المكشوف والذي يتفاعل مع الشمس سلباً، أو لأني قصـرت وقت استخدامي للقطران على فترة الفجر، أتسلل بعد نـوم وليـد وأتدهن بالقطران لنحو ساعة، بعدها أستحم، وأشعل الفحم مع قطعة من البخور الكمبودي، لتعطير المكان. كان وليـد مبتـهجاً بهـذه الطقوس الصباحية، (تحسسيني كل يوم إنه صباح الجمعــة)، تعليقـه دفعني إلى الاستمرار لعشر أيام أخرى، ولم يسألني عن مظهر يـدي الباهت، اكتفى بالقول (إلبسي قفاز بالمطبخ، الفيري نشف يدك).

وفي اليوم الحادي عشر، استيقظتُ فجراً بألم مفاجئ في مفصل إبهام يدي اليمين، بدا متيبساً، وارماً، لا أسـتطع تحريكـه. قـررت الذهاب إلى الدكتور نجيب، هذه المرة بمفردي، استأذنت قبيل الظهر من أبو فواز، وحضرت باكراً إلى العيادة، كان من الصعوبة إدخـالي دون موعد مسبق، فتعليمات مستشفى الدمام المركزي مشـددة في هذا، الأمر يبدو مختلفاً عن مرونة الدكتور محفوظ، رغـم ذلـك لم أيأس، ودخلت على الدكتور نجيب، شرحت له حال إبهامي الـذي ظل مفصله متورماً ومؤلماً طيلة الصباح، كنتُ على يقين أن الصدفية

هي المتسببة، ربما لأني لم أعرف الآلام إلا معها. أكد الدكتور نجيب شكوكي (هذا التهاب مفاصل صدفي)، صمت قليلا ثم سألني (علياء ليه رافضة الميثوتريكسيت؟).

سؤاله أثار رغبتي في البوح، أفرغت السر الذي يخنقني منذ مدة، أخبرته بمخاوفي من مضاعفات هذا العلاج، ورغبة وليد في الإنجاب، والمرات العديدة التي صليت فيها صلاة الاستخارة لتزيد من رفضي للإقدام على تناول العلاج، قلت له إنني خشيت على شعري من التساقط، وكبدي من التلف، خفت على رئتي وقلبي وبقية أعضائي. لم أستطع حبس دمعة انسكبت على خدي وأنا أحادث الطبيب، الذي ظل محدقاً إليّ، يستمع بإنصات شديد. وما أن فرغت من حديثي قال:

- خلاص يا علياء، نبدأ بجلسات العلاج الضوئي بوفا، إن شاء الله تتحسن أظافرك معها، لكن لازم تطولي بالك، النتيجة تحتاج شهور.
- وألم المفصل؟
- بحوّلك على الدكتور فيصل، أخصائي روماتيزم ومفاصل. طبيب شاطر، استمري معه.

شرح لي الدكتور نجيب آلية هذه الجلسات، وكونها تخلو من المضاعفات الجانبية ولا تتعارض مع الرغبة في الإنجاب، فقط أتوقف عنها في الأشهر الثلاثة الأولى إن أردت الحمل، وأبلغني أنها تتطلب حضوري ثلاثة أيام في الأسبوع. بدت المهمة شاقة جداً بالنسبة إليّ، لارتباطي بعمل يمتد طيلة النهار، لكنه نصحني بالقدوم فترة استراحة الظهر، بحيث أتخلى عن استراحتي ثلاثة أيام في الأسبوع لصالح

الجلسة، وهو ما شعرت تجاهه بالراحة. وزادت طمـأنينتي عنـدما وجدت الدكتور نجيب يُسهل لي مهمة الدخول على الدكتور فيصل دون موعد مسبق. فحص مفصل إبهامي، وعندما تأكد أني لا أعـاني من بقية مفاصلي، أعطاني مسكناً للألم، أستخدمه بشكل يومي، على أن أراجعه بعد ثلاثة أشهر.

عدت إلى مكتبـي في أرامكو وأنا منهكـة، ومطمئنـة في آن واحد، حتى أني اشتريت كرتون من الدونات المحلى بالشوكولاتة أثناء الطريق، ووزعتها على زملائي وزميلاتي، غمزت لي زينب (شكلك كنتِ طالعة تتغدي مع الحب؟)، ابتسمت (أنتِ حبـي)، لترد (الله، الله). كنتُ مسرورة للنافذة الجديدة التي انفتحت لعلاجي، بعد فترة طويلة قضيتها مذعورة من الميثوتريكسيت وخائفة من احتمالية تدهور صحتي، وكأني غريقة صادفت قارباً للنجاة في اللحظات الأخيرة التي تسبق توقف أنفاسها.

في المساء عدت مع وليد، ولم أخبره بالأمر، خشيت أن يشوش علي وينتزع فرحتي. أخبرته أني تعبت قليلاً في العمـل ولم أتنـاول وجبة الغداء، فقط اكتفيت ببعض الدونات مع القهوة، كنت أفكـر بطلب وجبة الغداء من أحد المطاعم، لكنه بادرني (ارتاحي بالغرفـة، وبسوي لك ألذ كبسة). كان عرضاً سخياً من وليد الذي عاد للتـو من عمله، وقرر دخول المطبخ بدلاً من الراحة والاسترخاء. رميـت جسدي المنهك على السرير بعد عناء اليوم، منتظرة انتهاء وليد مـن كبسته، ويبدو أنها بالفعل كانت كبسة، فقبل المغرب بقليل استيقظت فزعة على صوت صراخ وليد وهو واقف فوق رأسي، يسألني بصوتٍ مزمجر (إيش هذا يا مدام؟).

يمسك قنينة القطران (لقيتها بالدولاب وأنا أدور علب البهارات.. بتسحريني يا علياء؟ تحطي لي سحر بالأكل زي ما أمك سحرت أبوك؟ ومغلفته بورق جرايد مغربية حتى ما أنتبه له.. حذروني منك يا بنت الساحرة لكن ما صدقت، وأشوفك متغيرة من فترة وساكت.. أنا حمار لما وثقت فيك).

وقع كلماته عليّ كسكين طعن قلبي، بعثرني، شل عقلي. صدمني بوليد ليس كمثلها شيء، حتى أنت؟ حتى أنت؟ حتى أنت؟

للتو أدركت أن وليد الذي تقاسمت معه الأكل والنوم والجنس لم يكن إلا الوجه القبيح للعالم الذي هربت منه منذ طفولتي. كان يرتدي قناعاً لطيفاً، وفي العمق أفكاره مسمومة تجاهي، يزدريني، يستخف بي، لا يأمن على نفسه معي. وليد لم يخرج من نسق الوعي الجمعي الذي يراني بنت ساحرة، ومصدراً للدجل والشرور. هو صوت الألم الذي صارعته منذ طفولتي، رأيت في وجهه صورة عواطف وبناها وعماتي، تحوّل في لحظة إلى العدو الذي فررت منه فراري من المجذوم. رأيت وليد في أبشع حالاته، وربما أصدقها.

ما إن خرج من المنزل غاضباً، برفقة علبة سجائره النتنة، حتى نهضت لألملم ملابسي وحاجاتي، في هذه اللحظة قررت أن أرحل بلا رجعة، أهرب من هذا الرجل الذي يكاد يكون أي شيء إلا زوجاً. حزمت حقيبتي، ولبست عباءتي، واتجهت إلى منزل أمي الساحرة -كما يصفها-، وكأني هاري بوتر وهو يتجه إلى مدرسة السحرة. أصابع الاتهام التي وُجهت لي وأنا طفلة بقيت معي وأنا شابة في أواخر العشرين. بدءاً من عاملة النظافة في المدرسة، مروراً بالمعلمات،

وجارات الحي، والأهل والمعارف، واليوم ينضم وليد إلى القائمة السوداء، دخلها من أوسع الأبواب.

لم أجد في نفسي أي حاجة لتبرير ما حدث أو تصحيح فكرة وليد، فقدت الرغبة في الحديث معه، لم أعد أهتم بتعديل أفكاره المشوشة تجاهي. تركته على جهله، رضيت بظلمه، ورحلت عن منزله وحياته بأكملها. هذه المرة لن أبكيك يا وليد، فالناس يعرفون معدن بعضهم وقت الشدة، وأنت صدئت باكراً، قبل الشدة ذاتها. لستُ مضطرة لاختبارك من جديد، فشلت مرتين، ولُدغت أنا من ذات الجحر مرتين.

خرجت إلى الشارع خلال ساعة، برفقة حقيبة ملابس صغيرة، منهارة والدموع تبلل وجهي. ركبت مع أقرب سيارة أجرة، كامري من طراز قديم، لم أكترث برائحة العرق الحمضية التي تفوح في السيارة، ولا بصوت إيقاع الشيلات[1] الصادح منها، لم أطلب من السائق فتح النوافذ للتهوية أو تخفيض صوت المذياع، كعادتي في مثل هذه المواقف، كنت مستسلمة لكل شيء.

ولحسن الحظ لم تكن والدتي في المنزل لحظة دخولي. خبأت حقيبة الملابس في غرفتي، ثم نزلت إلى الصالة لأجد خالد الضباني كعادته، يحتسي الشاي ويشاهد أخبار قناة العربية، ناداني بهدوء (تعالي يا علياء تعالي)، لم يفطن لكوني لم أره منذ أسبوع. غسلت وجهي ومسحته على عجل، اقتربت منه وقبلت رأسه، جلست بجواره، فعاد إلى التسخط من أحوال ساسة العرب والشعوب، كان يرتدي روباً حريرياً وكأنه ممثل في فلم أبيض وأسود. يشاهد اضطراب الأوضاع

---

(1) نوع من الغناء الشعبي السعودي.

في مصر، ويحذرني (لا تصدقي القوميين يا علياء، ضحكوا علينا وضيعوا شبابنا). لا يفطن والدي إلى أن الحركات القومية انقرضت منذ عقود، وأصبحت عاراً يخجل منه كل أبناء جيله، كل القوميين استهجنوا ذاك التهوّر الذي كانوا عليه. إلا والدي، هو أحياناً ينقلب إلى النقيض، يصب اللعنات على العرب، يلعن الشعوب الجاهلة والقادة الذين يصفهم بأبناء الحرام. يفرك عينيه من تحت النظارة (إن لم تكن قومياً في العشرين فأنت بلا قلب، وإن بقيت قومياً بعد الأربعين فأنت بلا عقل).

لا ينتبه والدي أنه لامس عامه السبعين، لا يدرك أننا تجاوزنا هذه الألقاب العتيقة إلى أخرى جديدة، أصبحنا ما بين ليبرالي وأخواني وسلفي وجامي وتصنيفات لا أول لها من آخر. من حسن الحظ أن ذاكرة والدي توقفت في زمن قديم، هو لم يواكب موضة التراشق اللفظي ولا يعلم أن المثقف السعودي تورّم إلى حد إسباغ تهم التصنيف على أي مخالف، لا يعلم أن المشهد المعاصر متخم بالإقصاء والنبذ والتنابز بالألقاب، لا يدرك أن صراع الرأي رمانا في الحضيض، وفتت المجتمع، أصبح كل فرد موشوماً بلقب فكري معين، عُرف تافه.. كلنا تافهون.

يقطع مذيع الأخبار صمتنا (خبر عاجل)، نظرت إلى شاشة التلفزيون بتركيز عفوي، هي اللحظة التاريخية، إنه قرار السماح للمرأة السعودية بقيادة السيارة، قفزت كطفلة (يس)، بادلني والدي التصفيق والتصفير، وكأننا نتابع مباراة في كأس العالم أحرز فيها فريقنا هدفاً حاسماً. لا أدري أي سعادة تلك التي تملكتني، أنا المنهكة والمتعبة والهاربة من بيت الزوجية، وكأني أبحث عن فرحة تنزعني من واقعي

البائس. التفت والدي (مابعد سقتوا يا بنـــيتي؟)، بابتســـامة واثقـــة (بنسوق يا بابا، وبنعيش حياتنا بدون قيود وقرف). لا أعلم أكنـــت أعني فعلاً قيادة السيارة، أم وليد؟

سكب والدي كوباً جديداً من الشاي، وبدأ رحلة الـــذكريات البعيدة مع أحب سيارة إلى قلبه، كادلك اقتناها بدايـــة الثمانينـــات. عندما حملني وأنا طفلة أثناء قيادته للسيارة، ثم بلتُ على ملابسه، هذه القصة التي رواها لي للمرة المائة بعد الألف، يعيد روايتها اليوم بذات التفاصيل، وأنا أضحك معه، وكأني أسمعها للمرة الأولى. يُلمح والدي إلى أنه أول إنسان آمن بقدرتي على قيادة هذه القطعة الحديدية، سمح لي بمسك المقود مذ كنت طفلة، مدينة أنا لتلك اللحظـــات رغـــم طرافتها.

أحاديث والدي المشتتة، وقرار الدولة المفاجئ، أنساني الموقـــف العصيب الذي أعيشه. القهقهة التي يُصدرها من أعماق قلبه قـــادرة على قهر كل أحزاني، انتشي حين أسمعها، أحلق فوق السماء السابعة. هو الوحيد القادر على تغيير مزاجي في لحظة، هذا الرجل المسن هـــو حبيبـــي الحقيقي.

كان حازماً وجاداً في شبابه، شديداً معي في أمور لا تتطلب الشدة. أتذكر وأنا ابنة الثامنة سألته عن صورة معلقة على حـــائط مكتبه (بابا مين هالشايب؟)، رد بحزم (هذا جمال عبدالناصـــر يـــا بنت!). اليوم أرى هذا الناصري الأخير وقد تمكن منـــه ألزهـــايمر بسرعة عجيبة. شعرت بتقصيري تجاهه، لم أكن ابنته البارة، لطالما لهثت وراء مشاغلي وأحداث حياتي، لم يكن لوالديّ مرتبة عليا في قائمة أولوياتي، ابتلعت غصتي وأنا أسمعه يسترجع ذكرياته الطريفة

معي، كأنه طفل بجسد رجل كهل. لم يقطع ضحكاتنا إلا دخول والدتي (علياء هنا!). رددت باقتضاب (وحشـــتوني). ثم دخلـــت غرفتي لأنام.

(15)

صالة ملحفة بالعباءات السوداء، جدران موشومة بملصقات "لا تنسَ ذكر الله"، نساء يثرثرن عن كل شيء لتزجية الوقت الذي يسبق دخولهن إلى جلسات الضوء. تناديهن بالتناوب الاختصاصية حميـــدة، امرأة قطيفية تبتسم على الدوام بسن ذهبـــي يبرق داخـــل فمهـــا. تزوجت مؤخراً، بعد أن تجاوزت الأربعين بقليل، تبين ذلـــك مـــن مكالماتها الساخنة التي تتبادلها مع زوجها من وقت لآخر، أثناء انشغال المريضات بالجلسة. هكذا بدأت رحلتي مع جلسات العلاج الضوئي، أو البوفا كما أسماها الدكتور نجيب.

عرفت أن هذه الجلسات لا تقتصر على مرضى الصدفية فقـــط، بل تشمل المصابين بالبهاق أيضاً، كنت ألمح النساء والرجال الـــذين تلطخت جلودهم باللون الأبيض الشاذ وهم يتناوبون على دخـــول غرفة الجلسات، بعضهم شوه البهاق جسده بصورة مخيفة، وحميـــدة تطبطب عليهم (ماشاء الله تحسنت حالتك)، لا أعلم عن أي تحســـن تتحدث وأنا أرى بشراً يشابهون أبطال الفلم الأمريكي (مائة مـــرقش ومرقش).

(دورك يا علياء) تناديني حميدة، أدخل الغرفة التي لا تضم سواي أنا وهي، أخلع حذائي، أنزع عباءتي، ملابسي، ساعتي، كل شـــيء. أقف شبه عاريه بقطعتين تستران عـــورتي العليـــا والســـفلية. (هـــا

خلصتي؟) تسألني حميدة، ثم أدخـــل في صـــفيحة معدنيـــة بشـــكل الكبسولة، تغلق عليّ بابها، أقف وحيدة، استقبل موجات الأشعة فوق البنفسجية، دقائق قليلة، أشعر وكأنها دهر من الزمان، تكاد تخـــنقني هذه الغرفة الموحشة، هي أشبه بالقبر، أنا أجري بروفـــات مســـبقة للموت، هكذا أشعر.

(يلا اطلعي يا علياء) تعلن حميدة انتهاء الجلسة، أخرج لأرتدي كل ما نزعته، وأعود على عجل إلى مكتبـــي. اجتياز المســـافة بـــين المستشفى المركزي الواقع وسط الدمام وشركة أرامكو في الظهـــران يتجاوز النصف ساعة. أستغرقها بالتفكير بوشوشات النساء حـــول حميدة، كن ينعتها بـــ "الرافضية" سراً، لكونها من المذهب الشـــيعي، وعلى الرغم من لطفها وأدبها الجم مع الجميع، إلا أن ذلك لم يُحصنها من إساءات الحمقى، الذين ينبذون من يختلف عنهم.

النظرة القاسية تجاه حميدة ذكرتني بسلمى نـــور الـــدين، الأولى متهمة أنها تبصق في مياه الشرب، والثانية بممارسة السحر، إنها نظرية الوصم، حالة خاصة نبرع بها نحن السعوديين بفظاعة، نتقن حياكـــة التهم وإلباسها للمختلفين عنا، متيمون نحن بلغة التعميم، ومنكفئـــون حول ذاتنا، حول الأسرة، القبيلة، المنطقة، المذهب. ما هو يمثلنا بريء من المساوئ، وما عدا ذلك فدمه مستباح.

* * *

جلسات الضوء علمتني معنى أن أكون كائناً نتناً رغم نظـــافتي. القميص يترطب، وكأنه غُسل للتو، يلتصق في ظهري مـــن رطوبـــة الدمام القاتلة. عبق العنبر يختفي وتحل مكانه رائحة سخونة الشمس،

أكاد أتقيأ نفسي، أشتمّني وأشمئز مني. أشعر أني أصبحت قطعة من السلمون المدخن. تعتصر جسدي حبيبات العرق في كل مرة أمشي فيها داخل حديقة المستشفى وصولاً إلى عيادة الجلدية، أتقزز من ذاتي كل ظهرية. ففي غمرة لهيب قرص الشمس يبدأ خروجي، لأعود بعدها إلى مكتبي فأشعر بالبرودة، يتحوّل قميصي إلى صقيع ثلجي من أثر التكييف، وكل قطرة عرق تنتفض لتتجمد فوق جسدي. أدخل مكتبي بروح أخرى، امرأة تشبه تلك النسوة الموجوعات اللاتي يترقبن نداء حميدة.

تجربتي مع الجلسات قاسية وممتعة في آن واحد، أرى فيها الوجه الآخر لهذا العالم، أنا الفتاة البرجوازية القادمة من عالم أرامكو وكنف الأب المثقف والأم الحنونة، كل ذلك يصطدم مع حاجز الألم والشقاء. هي جرعة مكثفة من النكد، أتشربها مع كل جلسة، وأفقد بعدها الرغبة في كل شيء. أرى النساء اللاتي نهشت أجسادهن الأمراض، فأشعر أحياناً برغبة في التقيؤ، لا أعلم إن كنت سأصل معهن إلى هذه المرحلة المقززة أم لا.

لطالما استوقفتني إحدى السيدات، يتصادف حضورها دائماً معي، امرأة أربعينية مصابة بالبهاق، كانت تسلّم على النسوة المصطفات في الانتظار بحميمية لافتة، في إحدى المرات سألتني (ماجت حميدة؟)، هززت رأسي يميناً ويساراً، للنفي. فتح تأخر حميدة المجال لأتحدث مع هذه المرأة البشوشة، عرفتها بنفسي وتدرج معاناتي مع الصدفية، فأخبرتني أن اسمها دلال.

لا أدري كم من الوقت استغرقته مع دلال، صوتها هادئ وعميق، تناولت إصابتها بالبهاق، معاناتها معه بدأت منذ 10 سنوات،

بعد حادثة مروعة تعرضت لها، احترق منزلها، واحترقت معه طفلتها الصغيرة، ورغم شناعة القصة، كانت دلال تحكيها بأريحية. سألتها:

- حتى البهاق بسبب الصدمات النفسية؟
- الصدمات النفسية مالها علاقة، إحنا نقرر التعامل معها كصدمة، أو تجاوزها.
- موت بنتك محروقة بالبيت ما تعتبريه صدمة؟
- لا، هو قضاء وقدر.
- قضاء مؤلم!
- يحكي فيكتور فرانكل[1] قصة امرأة تعيسة، بعد موت طفلها الصغير حاولت الانتحار، وما منعها إلا ابنها المعاق، كان يهمس: عيشي لأجلي.
- عندك أطفال تماسكتي عشاهم؟
- لا، عندي حياة فيها تفاصيل ثانية.

قطع حديثنا دخول طفلة صغيرة مع والدتها التي ترافقها دائماً في جلسات الضوء، أشارت دلال ناحيتها:

- هذي جوري، بنوتة حلوة مصابة بالبهاق. أي صدمة أو ضغط نفسي ممكن تتعرض له وحدة عمرها أربع سنوات؟ الأمراض الجلدية أعقد من إنها تكون ردة فعل لألم نفسي.
- صح.

البرود الذي ميّز دلال أدهشني، امرأة غريبة الأطوار، تتحدث عن اجتياز المعاناة وكأنها تتكلم عن اجتياز مهمة عمل، وتروي قصة احتراق ابنتها في المنزل وكأنها تسرد أحداث فلم يُعرض في السينما،

(1) في كتابه "الإنسان يبحث عن معنى".

هكذا ببساطة! تركتها وأنا محتارة، أجلت أسئلتي إلى وقت لاحق، إذ قطع حديثنا قدوم حميدة (معليش تأخرت اليوم، من جا أول؟ ادخلوا بالدور).

تأملت استشهاد دلال بجوري، أتذكر كلام طبيبي الذي ربط إصابتي بوجود عامل وراثي، لربما هذا العامل هو الذي جعل المرض يفترس طفلة لم تدرك الحياة من حولها، من غير المعقول أن تكون أصيبت بسبب ضغط نفسي. حديث دلال نبهني إلى الشماعة التي علّقت عليها كل علات المرض، والدتي وعواطف وبناتها وعماتي ووليد والناس. كل طرف ألبسته تهمة على مقاسه، وجعلت له سبباً في وصولي إلى هذا الظرف الصحي القاسي. أكنت ضعيفة إلى هذا الحدّ؟

***

أنتهي من الجلسة وأعود إلى مكتبي فلا أجد الوقت الكافي لإحضار غدائي من بوفيه الشركة، وهي مهمة تكفلت بها زينب التي تنتقي أصنافي الاعتيادية، فوتشيني ألفريدو أو مقلوبة باذنجان أو مكرونة بالباشميل، وتضيف معها قطعة من حلوى إكلير التي أفضلها. تدرك زينب جيداً أني لا أستسيغ الأطباق الشعبية وتلك المليئة بالبهارات، وتعرف كيف تختار نيابةً عني الأكل الذي يروق لمعدتي.

أتغدى وأصلي الظهر، أرتل القرآن، أطيل السجود، أنهي صلاتي بالاستغفار مائة مرة، أنا التي لطالما حذرتني والدتي من نقر الصلاة كنقر الديك، صرت أؤديها بخشوع، أتوسل إلى خالقي أن يعيد لي جسدي كما كان، وأن يقتل بذور القلق التي باتت تنمو داخلي،

العيش في ترقب المجهول، الخوف من تطور المرض، هل سأكون "خايبة" مثل زهرة المغربية؟ هذه الفكرة تهزني من الأعماق. القلق يقتلني ببطء، شعوري بالأمان يتلاشى تدريجياً، لجأت لليوغا والاسترخاء والصلاة والشطرنج وحل الكلمات المتقاطعة، سمعت القرآن والموسيقى، ولم يتغيّر شيء. أحاول تطهير نفسي من الأحاديث المتلاطمة وفضلات السلبية والتشاؤم، أنجح أحيانا، وما أن أعيد النظر إلى جسدي وأظافري، حتى أفشل، وأعود إلى نقطة الصفر.

* * *

في الجلسة التالية سألت دلال:

- بعد كم سنة تكيفتِ مع المرض؟
- الوقت ماله علاقة، قرري التكيّف، وخففي من قلقك من نظر الناس لأظافرك، افردي يدك، وعيشي حياتك.
- الكلام سهل، لكن ما في شيء يجي بيوم وليلة.
- ﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[1].

تكررت لقاءاتي القصيرة مع دلال، هدوؤها يريحني، يبعث الطمأنينة داخلي لبعض الوقت، أبوح لها عن قلقي دون تحفظ، دون تحوّط من نظرتها الشخصية تجاهي. فلا هي تعلم شيء عن أمي المغربية ولا عن فضيحة الفيديو ولا عن خيباتي مع وليد. أحياناً نحتاج إلى أناس عابرين لا يعلمون عنا أي شيء، نحادثهم دون توجس من

---

(1) سورة القيامة.

أن يربطوا بين ماضينا وحاضرنا، أشخاص لم يحملوا ترسبات عنـــا، محايدين معنا.

نعم دلال طرف محايد، لذا خصيتها بـــالبوح بـــبعض قلقـــي، أفضفض لها بأريحية من وقت لآخر، ثم أعود بعدها إلى عملي بـــذهن صافٍ، وما أن تقف عقارب الساعة عند الرابعة والنصف حتى ألملـــم حاجياتي وأعود إلى المنزل، أغيب في غفوة تمتد لنحو ساعتين، أغسل خلالها تعب اليوم كله، وأهرب فيها من اتصالات وليد المتكررة، التي يطلب فيها الصفح والعودة بعد أن هاتفته والدتي وأخبرتـــه بحقيقـــة الأمر، أهرب من زن سلمى نور الدين المتواصل (ارجعـــي لبيتـــك)، أقسى عبارة تسمعها فتاة من أمها. مهما كانت المبررات والأسباب، أنا لن أعود، احترموا رغبتي، أرجوكم.

(16)

(لم يخلقنا الله ملائكة كي لا نخطئ!).. رسالة بعثها إليّ وليد بعد أن يئس من أن أرد على اتصالاته، وليد نفسه قصير، عجول في قراراته وانفعالاته، فخلال أسابيع قليلة استبدل لغة التأسف برسالة غاضبة وكأنه يقول فيها (خلصينا)، تلك الكلمة التي لطالما استفزني فيها. ولأني أسامحه دائماً أصبح لا يشعر بحجم أخطائه، أنا من أفسد وليد بكثرة تسامحي. أحياناً صفاتنا الجميلة هي المسبب لكل مشاكلنا.

أن تسامح مرة أو مرتين أو عشر مرات، لا يعني ذلك أنك مستعد للسماح بعد الخطأ المائة. فلكل إنسان رصيد أشبه بحساب مصرفي، وليد سحب كل رصيد السماح المتوفر لديّ، رصيده بخانة صفرية، أعلن إفلاسه. تلاعب بورقة التسامح، ظن أن علياء الطيبة لن تتمرد عليه مهما فعل، مهما جرح، مهما تمادى.

ربما يعتقد أني أتدلل عليه، لا يعلم وليد أني أختبر حياتي بعيداً عنه، فوجدت نفسي أبلي بلاءاً حسناً، أداوم على جلسات العلاج دون أية منغصات، وأركّز على عملي الذي أهملته إبان مشاكلي الزوجية. المؤشرات الإيجابية التي أعيشها تبرهن لي أن قرار الابتعاد عن وليد هو قرار صائب. لم أعد أبلل مخدتي بالدموع، ولستُ مضطرة إلى إخفاء الأدوية أو أن أقلق من ردات فعل وليد الغضبى تجاه كل

شيء، بعدما لمست ندمه من الارتباط بامرأة مصابة بالصدفية المزمنة. أنا لا ألومه، فشاب في مقتبل العمر من حقه أن يتمتع بجسد أنثى صاف من القشور والنقرات، هذه الأنثى موجودة في كل مكان، لكني لم أكنها.

لم أستطع حسم أموري معه والانسحاب التام، اخترت البقاء عالقة، متورطة بوليد، متشبثة بمصير غير محدد. فلا أنا التي أستطيع العودة إليه، ولا أنا التي طلبت الطلاق منه.

هل فعلاً أحببته؟ سؤال يلامس شغاف قلبي، ولا أجد له إجابة. وليد هو الرجل الأول في حياتي، الزوج هو الرجل الأول في حياة كثير من الفتيات، الرجل الوحيد المسموح له بمحادثة الأنثى التي اختارها، الجلوس بجانبها، ملامسة يدها، مداعبة شعرها، تقبيلها، لعق لسانها، دس أنفه تحت إذنها. ودون سابق إنذار تنجرف مشاعر المرأة تجاه هذا الرجل، لأنه طوق نجاة من الوحدة والوحشة، ملاذ للإشباع العاطفي والجسدي.. أهكذا يكون الحب؟ وإن أيقنت أن ما يجمعنا هو الحب، فهل هو كافٍ لإنجاح العلاقة؟

تجربتي القصيرة في الزواج أفهمتني أنه لا يقوم بالحب ولا الالتزام ولا الماديات، الزواج يحتاج إلى الأخلاق قبل كل شيء، أن يتعامل كل طرف بأخلاقيات عالية مع الآخر، هنا تستقيم الأمور وتستقر العلاقة. والمؤسف أن البشر إن أرادوا الإساءة فأسهل طرقهم تبدأ من جرح المقربين إليهم. وأخشى أن وليد استسهل جرحي، واعتاده. أريد وليد وأخاف منه في آن واحد.

عندما أختلي بنفسي أشعر بالوحدة أحياناً، الحاجة إلى صدر دافئ أرتمي في أحضانه، رجل يحتويني، يتقبل عيوبي وأتقبل عيوبه.

وليد لم يكن في منتهى السوء، لذا تركت الأمور معلقة، تارة يُتعبني الحنين وتارة ألهو مع النسيان. تخرسني أحياناً مواقف وليد الصادمة تجاه مرضي، رغم حداثة عهدي به وبالمرض ذاته، تتشكل في رأسي محكمة قضائية، من يدافع عن وليد بحكم ندمه الآن ورغبته الجادة في إحياء العلاقة مرة أخرى، ومن يتهمه بالخذلان ويراه رجلاً هوائياً متقلب المزاج؛ لا يمكن التنبؤ بجدية التزامه. جدل شرس يدور داخل جمجمتي ليل نهار، تُغذيه رسائل وليد واتصالاته المتوسلة لي بالصفح والغفران، ساعة أتعاطف معه وساعة أخرى أغضب أكثر، وفي الحالتين لا أرد عليه.

أيامي المزدحمة بالمهام تجعلني أرجئ القرار، أسوّف الأمر، لا أدري إلى متى ستبقى حكايتنا معلقة بهذا الشكل المُربك لي ولوليد ولأسرتينا. إلى أن جاء اليوم الذي أخبرني فيه أبو فواز أن هناك دورة عمل في دبي من المهم أن أحضرها، شعرت بالورطة الحقيقية، فأنا لا أستطيع السفر إلى الخارج إلا بإذن ولي أمري[1]، ورسمياً وليد هو المسؤول الأول والأخير عن تنقلاتي. لا أحد يستطيع أخذ مكانه، حتى والدي نفسه!

سبق أن طلبت من وليد أن يمنحني تصريحاً مفتوحاً بالسفر، يرتبط بتاريخ الجواز، وأبدى موافقته، لكنه كان يؤجل هذا الإجراء الرسمي البسيط، وتناسيت الأمر مع تسارع إيقاع حياتي معه. إلى أن جاءت سفرة دبي التي شتّتتني فعلاً. جعلتني أشعر أن تباطؤي في حسم أمر زواجي من شأنه إثقال حياتي بقيود كثيرة، من بينها تعطيل تطوري الوظيفي، توترت، و لم أجد بد من مهاتفة وليد.

---

(1) وفق النظام السعودي، لا يحق للمرأة السفر إلا بموافقة ولي أمرها.

- أخيراً رديتِ يا مدام! (ساخراً).
- وليد أنا ما اتصلت لنقاشك بأي شيء، عندي دورة بدبي الأسبوع الجاي، ولازم أسافر.
- أها يعني اتصالك للدورة، مو لي أنا.
- .... (صمت).
- اليوم أهي إجراءات سفرك، لكن بشرط، ترجعي من دبي على بيتك.
- تساومني يا وليد؟
- أنا أحبك يا غبية!

* * *

هل وافقت كي لا أُحرم من دورة العمل؟ أم لأني راغبة في العودة إليه؟ أم لأني غبية فعلاً كما وصفني وليد؟ هذه السفرة مثّلت طوق النجاة الأخير لانتشال علاقتنا، فوليد تعامل مع الأمر بشهامة، رغم أن الفرصة جاءته على طبق من ذهب، كان بإمكانه إحباط رحلتي، لكنه لم يفعل، بل على العكس، أصر على إيصالي إلى المطار بنفسه. (ما نبي لك التعب يا مدام) قالها وهو يتغصّب الابتسامة، يكرر وليد كلمة (مدام) حين نختلف، وكأنه يحاول تذكيري بأنه أصبح جزءاً ثابتاً في حياتي. أني لم ولن أعود تلك الفتاة التي كُنتها، وأن بقاءه معي أصبح من مُسلمات الحياة.

شدتني مسحة حزن غطت وجهه في طريقنا إلى المطار، بدا شاحباً، خسر بعضاً من وزنه، مع سواد تحت عينيه، لا أدري إن كان من أثر السهر أم التعب. بدا لي وليد بوجه أخر مليء بالبؤس، رغم

مكابرته، وروح الفكاهة التي طغت على أحاديثه، طيلة المسافة التي استغرقناها في الطريق من منزل أهلي إلى مطار الملك فهد الدولي في الدمام. (انتبهي لنفسك، وكلميني إذا وصلتِ)، كانت هذه كلماته الأخيرة التي تبعت نداء الرحلة (على السادة المسافرين إلى دبي التوجه إلى بوابة 23...).

ودعتني عين وليد المليئة باللهفة، للحظة وددت أن أرمي حقيبة السامسونيت التي كنت أجرها، وأمزق بطاقة صعود الطائرة، لأرتمي في حضن هذا الرجل المنهك. أشفقت على حاله، شعرت بحاجته إليّ، صرخ احتياجي له، وددت أن أنصهر فيه ومعه، بعيداً عن كل شيء. لأني أحبه. هذا الحب الذي يجعلني على يقين بأن وليد يستحق فتاة أفضل مني، وأنا أنثى ناقصة، لا أستطيع إشباع رغباته بالشكل الكافي، إلا أني أخبئ ضعفي تحت ستار الاستغناء عنه، لأن كبريائي يمنعني من البوح له بهذه الاعترافات المنتقصة لذاتي، هذه الذات الموجوعة من فقد زوجها وبيتها واستقلاليتها، لكنها تكابر وتكابر وتكابر.

ابو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

صحيح أن خلافنا الأخير سمم مشاعري تجاه وليد، لكنه سم من نوع رديء، لم يستطع قتلها، وكأن كرياتي دمي البيضاء هاجت وقاومت لتنظف كل ما في داخلي من سموم الكلمات القاسية. لوهلة نسيت كل شيء. وجه وليد البريء الذي ظللت لأسابيع أتحاشى رؤيته أنساني كل شيء، في لحظة.

(النداء الأخير..) تنبهت لكون الطائرة على وشك التحليق، سرت برفقة السامسونيت الحمراء إلى الطائرة.. إلى دبي.

(17)

لا أجهل تعلّق السعوديين بدبـــي، لكني شخصياً أمقتها، أختنق فيها. تعجبني أبو ظبـــي والشارقة والفجيرة أكثر، كـــل الإمـــارات الست، عدا دبـــي. هي مدينة إسمنتية تفتقد الروح والهوية، تخلت عن أصالتها بمحض إرادتها، اختزلت عمرها بعشرات الســـنين، مدينـــة متصابية، تستعر من ماضيها، وتفاخر بمنجزات الـــدرهم. تشـــعر في دبـــي لوهلة وكأنك في قلب ميلان أو لندن، مع صـــخب المتـــاجر العالمية ورائحة المقاهي القادمة من كل حدب وصـــوب، ثم تفـــوق للحظة وتتذكر أنك في مدينة عربية بلا هويّة حقيقية، فلا هي الـــتي رممت وأبرزت تراثها، ولا هي التي زاوجت بينه وبين مظاهر العصرنة الزائفة. دبـــي تفتقد أصالة سوق واقف في الدوحة ومباركية الكويت وشعبية خان خليلي القاهرة، هي توجّه زائرها نحو أبـــراج الإسمنـــت ومتاجر الأزياء، مدينة أهدت مواقعها التراثية للجالية الهندية وأسمتـــها "دبـــي القديمة" بغرور مفرط، مدينة تقتات على الثقافة الاستهلاكية، إنها عاصمة الاستهلاكيين.. ألم أقل لكم أني أكره هذه المدينة البلهاء؟

لكن مشاعرنا تجاه الأماكن شيء، ووجودنا فيها شيء آخـــر، القدر هو من جعلني أعود إلى دبـــي التي كانت آخر زياراتي لها قبل نحو سنتين. أعود باختلاف جذري عن علياء التي كُنتها، علياء القديمة كانت متعافية البدن والقلب، أما الآن فهي معطوبة في كل موقـــع،

أنهكتها الحياة خلال سنتين، نعم سنتين وليس عـــامين، لأن العـــام يستعمل لما فيه خير والسنة لما فيه شر، أتذكر هذه المعلومة وأضحك، نبدع نحن العرب في خلق معنى متفائل وآخر بائس للشيء ذاته.

أفكار مشتتة التهمتني منذ لحظة الإقلاع وحتى حطت رحالي في مطار دبـــي، نزلت من الطائرة بعقل شارد، أجوب الممرات وأبحث عن لوحة اسمي بين الواقفين لاستقبال المسافرين، نعم وجدته. (علياء الضرباني)، مضروبة أنا حتى في اسمي المكتوب بالخطأ على اللوحة التي يحملها شاب هندي، لوّحت له بيدي.

- مدام علياء؟
- يس، علياء الضباني. (بابتسامة).

كلمته (مدام) ذكرتني بوليد، أحسست بنغـــزة في صـــدري، ركبت السيارة وأمسكت هاتفي، كنت أريد الاتصال به لأطمئنـــه على وصولي كما طلب، لكن شيئاً ما جعلني أتراجع، هاتفت والدتي، ثم عدت إلى حيرتي، هل أتصل بوليد أم لا؟ اكتفيت ببعـــث رســـالة (أطمنك وصلت بالسلامة). ليأتيني رده مباشرة (الحمـــد لله علـــى السلامة، انتبهي لنفسك).

أغلقت هاتفي، وأنا أردد على نفسي (انسحبـــي، انسحبـــي بالتدريج). اخترت تأمل شوارع مدينة الإسمنت التي ورثـــت عـــدم تقبلها من والدي، هو يرى في دبـــي انهزاميـــة المـــواطن الخليجـــي البسيط. أصل إليها وأنا أعاهد نفسي بأن لا أقع ضـــحية إغـــراءات متاجرها، قررت الانسلاخ من عباءة الاستهلاك التي تفرضها علينـــا دبـــي.. وأنا أعلم أني فاشلة في الكثير من قراراتي.

* * *

في بهو الفندق الفاخر الواقع على طريق الشيخ زايد، أخبرتني فتاة الاستقبال البولندية أن غرفتي مطلة على المدينة، غمزت لي (كم أنتِ محظوظة) بالإنجليزية، بادلتها الابتسامة الباردة إياهـــا، وفي داخلـــي ضحكة، تذكرت قصيدة محمود درويش:

أنا العاشق السيئ الحظ

تمرد قلبـــي عليّ

مرت ساعة، واثنتان، وثلاث. تولاني الضجر، بقيـــت فيهـــا مسترخية على السرير، لا أنا النائمة ولا المستيقظة، أتأمل ذراعـــي الموشومة بالصدفية، وأصابع قدمي التي تنفخت من التهاب المفاصل الصدفي. لا أذكر متى كانت آخر مرة انتعلت فيها حذاء بكعـــب عال، هجرت خزانة الأحذية الرفيعة منذ عدة أسابيع، لم أعد أقوى على انتعالها بعد أن داهمتني لعنة آلام المفاصل، التي يخففها المسكن أحياناً وتشتد ضراوة في أحيان أخرى، خاصة حين أسير مسافات طويلة.

أنهكني المشي في المطار، سرت لمدة ساعة وتورمـــت أصـــابع قدميّ، أي بؤس هذا الذي أعيشه، أسأل نفسي وأنا مستلقية علـــى السرير، وفي ذاكرتي تمر صور علياء التي كان صوت دقدقة كعبـــها يسبقها، أتذكر تسمية والدي لي بــ "الفرس"، لأن صوت مشـــيتي تشبه الصوت الصادر من حدوة خيل عربية أصيلة. (جت الفـــرس)، التعليق الذي يرفعني إلى السماء، وأنـــا أتفـــاخر بأحذيـــة فـــالنتينو وكريستيان لوبوتان ومانولو بلانيك. لطالما تبخر راتبـــي على اقتنـــاء الأحذية ذات الكعب العالي، أشعر وأنا أنتعلها وكأني أصافح السماء، أطير بخفة، كفراشة ملوّنة. هذا الشعور اغتالته الصدفية.

يقطع صمتي رنين الجوال، إنه وليد، دائماً يأتي في الأوقات الخاطئة. قررت عدم الرد، ونهضت لابتلاع قرص جديد من المسكن، لعلي أستطيع بعدها تحريك قدمي بأريحية. شعرت أن ساعات الليل بطيئة وطويلة، كنت متلهفة لشروق الشمس، أنتظر الصباح يأتي كي أنخرط سريعاً في دورة العمل بدلاً من هذا الليل الكئيب.

* * *

العزلة عن الناس قرار فاخر، عندما تختاره بمحض إرادتك، وليس حين يُفرض عليك. العزلة تُرتب الأفكار، وتهذب حيونة النفس البشرية، لكنها مُرة، وقاسية أحياناً. وحدهم الأقوياء من يستمتعون بعزلتهم، أنا قوية على الرغم من الظروف البائسة التي أمر بها، لكن عزلتي ليست باختياري؛ هي رغماً عن أنفي.

أرى السرير الكبير الذي أستلقي عليه مُصمماً لشخص آخر يشاركني إياه، مع مخدة منفوخة تنتظر وجه أحدهم ليُقعرها برأسه. ماكينة القهوة الموضوعة أمامي يصطحبها كوبان، وكأن الفندق يصرخ "لا طعم للحياة دون مشاركة". أن أصنع لي كوباً من القهوة وأحتسيها بصمت، دون أن أثرثر مع أحد، فأي متعة سأجدها مع هذه القهوة؟ وكأني أحتسيها في عزاء ميت.

المرايا المنتشرة في كل زاوية لن تخبرني كم أنا جميلة إذا تأنقت، هي مرايا خرساء، تُذكرني بخيبة الوحدة. وجهي يتكرر فيها، وجه بارد وممل، لو نطقت المرايا لقالت "يا لتعاستك". هذه الغرفة الواقعة في الدور الخامس كل شيء فيها يأتي على هيئة زوجين اثنين،

المناشف، النعال، أكواب الشرب، فِرش الأسنان، كل شـــيء، كـــل شيء.. أنا فقط الوحيدة.

قررت قتل هذا الصمت الخانق، اخترت صوت محمد عبدة (يا غالي الأثمان غلّوك بالحيل، من يوم سمّو بك جميل المحيا)، الموسيقى هي الملاذ الآمن لي. متورطة أنا فيك يا وليد حتى في الذائقة الموســيقية، لطالما قال لي أن أفخر أغاني محمد عبده هي تلك التي كتبـــها خالـــد الفيصل. أنتظر المقطع الذي ينحرني من الوريد إلى الوريد (أعن له عنَّة هَل الكيف للهيل، ما ذاق راعي الكيف أنا ذقته هنيّا).

أفتح النوافذ الزجاجية، ليختلط صوت الأغنيــة مــع ضــجيج الشارع وأبواق السيارات، أشعر بالراحة، هذا الصخب يشعرني أني لا زلت على قيد الحياة.. هذه هي الحياة.

(18)

صباح جديد. انهضي يا أنا، فالدورة تبدأ في الثامنة، أستبقها بساعة، لأتم استعدادات الأنوثة القسرية، الحمام الساخن وتجفيف الشعر وتلطيخ الوجه بأدوات الزينة، أختم هذه الطقوس برشات من عطر العنبر الذي اعتدته، هذه الرائحة المستخرجة من بطن الحوت تسلب عقلي. لا أعلم حقيقة إن كان هناك حيتان في الواقع وكيف تصنع معدها هذا العبق الآسر، لكني أدمنت رائحة العنبر على أية حال، وبتُ اعتبرها واحدة من أدوات تحسين المزاج، مع كوب الكافيين المركز "بلاك كوفي"، الذي تحتاجه فتاة مثلي نامت قبيل شروق الشمس بقليل.

في صالة الأعمال المجاورة للفندق كان المكان، ومع دخول المدرب الكندي بدأ الزمان، أربع ساعات متواصلة من الشروحات والعروض المرئية، تلاها استراحة الظهر، ثم عدنا لإكمال البرنامج الذي يمتد إلى الثالثة عصراً. وخلال الاستراحة كنت أسمع خطط زملائي المسائية في الذهاب إلى التبضع والسينما والسهر في المقاهي الشهيرة التي يقصدها السياح. كنتُ ألمح بريقاً في أعينهم وهم يتحدثون بحماسة عن الجدول الترفيهي الذي يعتزمونه، بينما كان جل طموحي أن أعود إلى الفندق لأنقع قدميّ في مياه دافئة.

ما أتعبني أني أجبرت نفسي على انتعال حذاء بكعب متوسط الارتفاع، لكنه أرهقني، شعرت حينها بحجم البلاهة التي تتلبسني أحياناً، اخترت أن أكون أنيقة بدلاً من إراحة نفسي، أو ربما كنت أريد الاندماج مع أشكال زميلاتي المهندمات، لأخدع نفسي بمقولة "تحدي المرض"، هو ليس تحدياً بقدر ما هو تهور وحمق.

***

تنبهت موظفة الاستقبال الشقراء إليّ حين دخلت بهو الفندق وأنا أعرج بشكل خفيف، كانت قواي قد أُنهكت بالكامل، جاءت لتطمئن عليّ، وأعطتني نصيحة بالذهاب إلى النادي الصحي التابع للفندق والحصول على مساج يدلل الأقدام. كم هي ذكية هذه الشقراء، فعندما عدت إلى غرفتي جلست أتصفح قائمة الخدمات العلاجية التي يقدمها النادي، لأدخل في مرحلة التفكير "أذهب أم لا؟"، فلديّ متسع طويل من الوقت، إلا أني خشيت أن أتألم بشكل مضاعف، فالتهاب المفاصل يختلف جذرياً عن تورّم الأقدام المرهقة، لكني ملتُ إلى الرغبة بالتجربة، وسألت نفسي، ماذا لو عملت حماماً مغربيا أيضاً؟ فها أنا ذا هجرته منذ أكثر من عام و لم تتلاشَ صدفيتي، فماذا سيضر لو تمتعت بالدعك المغربي ولو لمرة واحدة.

أشعر أني ثقيلة، ممتلئة بالجلد الميت، والأوساخ المتراكمة. أتوق لرائحة الصابون البلدي ونشوة انتعاش مسامات جسدي التي يمنحني إياها الحمام المغربي. انتظرت حتى الساعة الخامسة، ثم نزلت إلى النادي. نادت موظفة الاستقبال امرأة بدينة اسمها ياسمين، لتأتي بابتسامة عريضة حملها فمها الكبير، (تفضلي يا آنسة). هكذا بدوت

في عين ياسمين، إلا أن أكثر ما شدني إليها حقيقة هو جنسيتها المغربية، عرفت ذلك منذ الوهلة الأولى، ولا أعلم لم أشعر بحنين خفي إلى نصفي الآخر حين ألتقي بنسوة من المغرب؟ البلد الذي كنتُ استعر منه في طفولتي كي لا أُنبذ من زميلات الدراسة، هكذا كنتُ أظن، حين أفهمتني عواطف وعماتي أن أصل أمي عيب، تهمة من الحماقة الاعتراف بها. إلا أني في كل مرة أصافح فيها امرأة مغربية أشعر بشوق إلى حضن أمي، لا أعرف كيف يحدث ذلك.

ذهبت مع ياسمين إلى غرفة البخار، إذ نصحتني أن أبدأ بالحمام المغربي ثم مساج القدم، كي أنام ألذ نومة، كما تقول، نزعت ملابسي، للحظة شعرت بوكزة في صدري، تذكرت جلسات الضوء ونساء المستشفى المركزي بالدمام، تلك اللحظة التي كنت أنزع فيها ملابسي لأدخل إلى كبسولة الأشعة الخانقة، والتي عليّ أن أعود إلى المداومة عليها في الأسبوع المقبل. كثيرة هي المهمات المتعبة التي تنتظرني بعد عودتي من دبي، أحاول تناسيها، وتطل برأسها كل ساعة. سألت ياسمين:

- كيداير؟[1].
- لَباس[2]. تتكلمي مغربي؟
- أمي مغربية. (بابتسامة).
- تبارك الله عليك.

يبدو أن معرفة ياسمين بنصفي المغربي قد رفع الكُلفة بيننا، تخلّت عن رسمية عاملات الفنادق، إلى بساطة المرأة التي تخيّلت أنها

---

(1) كيف حالك؟
(2) بخير.

تعرف أمي، سألتني (شحال عندك من عام؟)[1]، وغيرها من الأسئلة الفضولية، التي أقع في فخها في كل مرة تعرف امرأة مغربية أني ابنة لإحدى بنات جنسها اللاتي استطعن الزواج برجل سعودي، أو خليجي بشكلٍ عام. وكأهن يبحثن عن السر. لهفة ياسمين على محادثتي أوحت لي بذلك. هو في حقيقة الأمر حلم مشروع لأي فتاة مثلها تعمل على دعك نزيلات الفندق، تنزع الأوساخ عن أجساد النساء، وتنزل تحت أقدامهن لفركها. ثم تحلم بالرجل الخليجي الثري الذي يعولها ويكفيها مشقة هذا العمل المنهك.

***

بقيت بقطعتين من الملابس الداخلية، طلبت من ياسمين إحضار الألبسة الورقية المؤقتة التي تستخدم لتغطية العورة خلال الحمام المغربي، لكنها ضحكت بفجاجة، (علاش[2]؟ إللي عندك عندي). شعرت أني متورطة بهذه المرأة الجريئة، أعدت الطلب منها بخجل، فأحضرت لي قطعة من السروال الداخلي الورقي، مؤكدة أنه الوحيد المتوفر لديها الآن. لبسته وبقيت عارية النهدين، للمرة الأولى أقف بهذا المنظر أمام امرأة أخرى، الوحيد الذي رآني هكذا هو وليد. الحُمرة غطت وجهي فجأة، وضحكات ياسمين تضاعفها، وهي تتغزل بجمال جسدي (تبارك الله غزالة)[3]. قالت إن المحظوظ هو من سيتزوجني، لم أخبرها أني متزوجة، تركتها تردد الكلمات إياها التي

(1) كم عمرك؟

(2) لماذا؟

(3) جميلة.

أعتقد أنها اعتادت على تخدير عميلاتها بها، و لم تعلــق علــى بقــع الصدفية، ربما لم تلحظها مع كثافة طبقات البخار، أو ظنت أنها آثار قديمة أو بقع جلدية اعتيادية.

أغمضت عيني وتركت الحرية لياسمين، إلى أن تفطنــت ليــدها وهي تحاول الدخول إلى عمق السروال الــورقي، فتحــت عــيني مندهشة، فعادت هي لابتسامتها العريضة. يبدو أنها حاولت جــس نبضي لمداعبة المحظور، وعندما رأت الذهول في وجهي أبعدت يدها. خبيثة هذه المغربية، هكذا قلت في نفسي، وللمرة الأولى أعلق خبث أحد على الجنسية المغربية، لكن يبدو أنها من السواد الفاسد الذي دمر سمعة سلمى نور الدين وطهر مثيلاتها. قطع صمتي سؤال يــاسمين إن كنت في دبــي لوحدي، وعندما قلت نعم، بدأت تُلمّح إلى ما هــو أسوأ، في سرد قصص بعض الفتيات اللاتي يأتين إلى دبــي بمفردهن ويذهبن إلى أماكن السهر المشبوهة، تصف ذلك باللهو البريء، تبرر فعل اللاتي ينمن مع الرجال الأغراب في ليلة ماجنة، تتــأوه وهــي تستحضر لذة الجنس المحرم، وكأنها تعرض عليّ المســاعدة في هــذا الأمر، بطريقة مُلتفّة.

انتظرت إلى أن انتهت هذه البدينة الوقحة من الحمام المغربــي، اغتسلت وارتديت ملابسي على عجل، لحقتني لإرشادي إلى غرفــة المساج، لكني أعطيتها ابتسامة باردة (بعدين). وأنا أعلم أني لن أعود إلى هذه المرأة مرة أخرى، أبداً.

* * *

للحظة؛ وددت أن آخذ بثأر كل امرأة مغربية عفيفة من ياسمين، كدتُ أهم بالانقضاض على هذه المومس المغربية المختبئة خلف ستار العمل في الفنادق. هي الأخرى اعتقدت أني فتاة سهلة لمجرد أن أمـــي مغربية، لربما ظنت أني رضعت من ثدي والدتي حليباً بطعـــم العهـــر والمجون. كيف لي أن ألوم مجتمعي السعودي حين يحبسني في زنزانـــة هذه النظرة القاسية إن كانت امرأة مغربية نظرت لي وفقها؟

أعلم أن دبـــي تضم مغربيات يمارسن الرذيلة، لكـــن أن يـــتم اعتقاد ذلك فيّ أنا لمجرد أني فتاة ذات نصف مغربـــي، هو أمر مـــثير للغثيان، يحفزني على تفريغ ما في معدتي. أنا التي لطالما نبذت الأهـــل والصديقات تحاشياً لهذا التلميح الوضيع، أقع فيه اليوم من امرأة مغربية بلهاء. كيف لي أن ألوم عواطف وعماتي؟ كيف لي أن ألوم وليد؟

(19)

هل للشرف جنسية؟ هل له جواز سفر؟ حقيقة أسأل، وأحاول الخروج بإجابة مرضية. فعندما كنت طفلة أخبروني أن بنات بـــلادي هن أشرف نساء المعمورة، وما عداهن محل شك، أو دعوني أقـــل إن الشك في نساء المغرب. فلأن أمي مغربية نبذتني عـــائلتي، لأن أمـــي مغربية اتهمني المجتمع بفضيحة الفيديو، لأن أمي مغربية نعـــتني وليـــد بالساحرة، لأن أمي مغربية حاولت ياسمين جرّي للرذيلـــة.. ضـــريبة باهظة دفعتها نظير استمتاع والدي بامرأة مغربية. أي لعنة هذه.

نصفي المذموم جعلني فتاة بشرف ناقص، هم لم يقولوها، لكن تصرفاتهم تجاهي تنطق بذلك. وضعوني محل شك، مدانـــة في كـــل شيء، متهمة بجريمة لم أقترفها، إن كانت هناك جريمة حقاً. هؤلاء هم المستشرفون، مُدعو الشرف، آفة المجتمع، يزايدون على بقية البشـــر، يُدنسون المختلف عنهم، ويمارسون التنمّر تجاهي أنا وأمثالي.

ظننت أني بعد التخرج من الجامعة سأرتاح من همز ولمز زميلات الدراسة، فرافقتني فضيحة الفيديو إلى عملي، فاحت رائحة الماضـــي القبيح في الشركة. حاولت الخلاص بزواجي من وليد، وما زادني هذا الزواج إلا كدراً. أريد أن أرتاح يا الله. فأي ذنب اقترفته يستحق كل هذا الألم، ألست أصلي فروضي الخمسة؟ أصوم رمضـــان؟ أحفـــظ فرجي؟ ألا يكفي هذا؟ ماذا عليّ أن أفعل لتمنحني الراحة والسعادة.

خذ مني وظيفتي وشهادتي وزوجي وكل شيء، لكن أعد لي صحتي، أرجوك يا الله، أعد لي أظافري، ومفاصلي، ونقاوة جسدي. للتو أدركت أن حياتي قبل الصدفية لم تكن بذلك البؤس الذي اعتقدته. يا الله، هل أنت غاضب مني لأني كنت حانقة على نبذي الاجتماعي؟ أتوسل إليك السماح، أرجوك أعفُ عني، اصفح يا رحيم، يا حليم، يا جبار، اجبر كسري. اجبرني.

أنا ذات اليدين القبيحتين، اللتين أكلتهما الصدفية، تورمت مفاصلي، تدببت أصابعي، تقعرت أظافري. وكأنهما يدا ساحرة شريرة في أحد أفلام ديزني. بنت الساحرة صارت تشبه الساحرات، ساحرة ليس لديها مكنسة طيران، أين تُباع هذه المكانس؟ لا أدري هل سُميت مدينة مكناس المغربية بهذا الاسم نسبة إلى المكانس السحرية؟.. أنا أهذي، نعم بالتأكيد.

***

وحده المرض قادر على قهرنا، سحقنا، إعتام الدنيا في أعيننا. أن أكون مصابة بمرض جلدي، فهذا يعني أن الألم ممزوج بتشويه للجسد، أذى مادي وحسي. صحيح أن إصابتي ليست متقدمة، لكنها جاءت في أحلك الأوقات، لماذا لم أُصاب بالصدفية بعد زواجي بسنوات، بدلاً من أن أزف إلى عريسي بمرض يتطور بصورة مخيفة، أي متعة كنتُ سأعيشها مع رجل تعرّف عليّ برفقة مرضي؟ ولا أدري هل بقاؤه معي من باب الشفقة؟ أنا التي أكره أن أكون مثيرة للشفقة. أكره أن أعيش دور المرأة التي تنتظر مواساة الآخرين، امرأة هزيلة تستقبل دعوات العجائز وترمقها الأعين بدونية.

المواقف القاسية تصفعنا، فندرك معها أن الحياة هشة ومتقلبة. نفطن إلى النعيم الذي كنا نعيشه و لم نتلذذ به، إنه نعيم الصحة. أغبط الطالب المنهمك في حل واجباته المدرسية، والأم التي تفكر في سلق البيض لأبنائها، والعاملة المنزلية المنشغلة بتلميع مرايا الحمام. كلٌّ منهم مشغول بأمور يومه الاعتيادية، أهم في خير عظيم.

كل إنسان يأكل ما يشتهي و لم يحذره الأطباء من مضغ الطعام، هو من المدللين في الأرض. كل من يتحرك بحرية ودون قلق من فك جراحة أو سقوط خيوط هو في نعيم وفير. كل من يمارس حياته بلا مشاركة مادة متطفلة على بدنه ودون انزعاج من رائحة المواد الطبيعية الكريهة يعيش في سعادة. كل من ينام ويستيقظ على رنة هاتفه المحمول وليس من وجع يصرخ في جسده هو إنسان محظوظ.

الآن أدركت قيمة الصحة، وأيقنت أن الحياة لا قيمة لها بجسد عليل. أن تنعم ببدن جيد فهذا يعني أن كل شيء آخر لا قيمة له، إن منغصات الحياة كلها تافهة، إن الناس سيتقبلونك على ما أنت عليه، لا مجال للشفقة أو الرأفة بحالك، لن يجاملك أحدهم طمعاً في تقديم الدعم المعنوي لك.

***

خطئي الأكبر هو أني نظرت إلى نفسي على أني كائن ناقص، أبخست هذه النفس حقها وقدمتها على طبق من ذهب لوليد، وكأني قميص في أوكازيون لتصفية البضائع، يعرضه البائع بنصف السعر كي يتخلص منه. أنا من انتقص من قيمتي، إصابتي بالصدفية أشعرتني أني لا أستحق ما هو أفضل، وأني ممتنة لوليد عزمه على الارتباط بي.

نظرة الدونية هذه تسللت إلى علاقتنا خفية، لمسها وليد، عاملني وفقها. لا أحد يُهان اعتباطاً، كل إنسان يضع نفسه في المكان الذي يراه عليه الناس.

كلما قبلني وليد كنت أتساءل: هل هو يشتهيني أم يشعر بالذنب تجاهي؟ يُكفر عن ذنوبه بصحبتي، يتقرب إلى الله عن طريقي. في كل مرة حاول مضاجعتي كنت أشك أكثر إن كان يفعل ذلك بدافع الرغبة أم يتكسب أجر إعفافي. انسقت وراء أفكاري السلبية مرة تلو أخرى، هززت ثقتي بنفسي، بتُ أشعر أن أنوثتي ناقصة. أمسكت هاتفي المحمول، فتحت صفحة المحادثة، كتبت لدلال (المرأة المصابة بالصدفية تبقى أنثى؟) وبعد نصف ساعة:

- علياء الأنوثة إحساس داخلك، ماله علاقة بالشكل.
- وإذا ما حسيت إني أنثى، الرجل بيشوفني بدون أنوثة؟
- لا، نظرة الرجال للأنوثة مختلفة.
- كيف؟
- مصطفى محمود[1] يقول إن الرجل يفهم الأنوثة على أنها الأمومة، الرحمة والحنان، التعاطف والمودة والفهم.
- يعني أكون قردة بس حنونة ومتفهمة.
- هاها، هذا عصر القرود.
- طيّب، تصبحي على خير.

(1) فيلسوف وكاتب مصري.

(20)

إنه يومي الأخير في دبـــي، قرر المدرب الكنـــدي اختصـــار الدورة في ساعتين، ليمنحنا بقية النهار هديّـــة، وخـــلال هـــاتين الساعتين تحدث عن حياته الشخصية، صدمت أنا وزملائي حـــين أخبرنا أنه مصاب باضطراب فرط الحركة وتشتت الانتباه، عـــانى منه في طفولته وشبابه، وحظي بدعم أسري جعله يتخطى المرض، ليكمل تعليمه الجامعي ويعمل في أكبر شركة استشارية في المنطقة. كان يضحك ويتندر على إصابته، حديثه أيقظ الأمل داخلـــي، أو على الأقل داعبه، انسجمت مع التفاصيل الصعبة الـــتي رافقـــت تكوينه، لحظات الألم والخيبة والدموع. تجاوز كل ذلك، وأصـــبح يتحدث عن اضطرابه المزمن بأريحية وبهجة، وكأنه يرفـــع رايـــة النصر.

هذا الرجل الأصلع دخل عامه الخمسين، وله مكانـــة مهنيـــة كبيرة، كان بإمكانه التركيز على الوجه المشـــرق لســـيرته الذاتيـــة الضخمة، والقفز عن قصة المرض أو الاعتراف به، لكنه اعتـــبر الألم الذي مر به جزءاً من صناعة هذه العظمة كلها، يتفاخر باضـــطرابه، وكأنه يقول: انتصرت عليه.

أنا التي أتكتم على إصابتي، أعتبرها جـــزءاً مـــن خصوصـــيتي المزعومة، أخشى هتك ستار وضعي الصحي، مخافة أن أســـقط مـــن

أعين الناس، وكأن الصدفية عار أحاول الهرب منه، كهربي من جنسية أمي، فضيحة الفيديو، كهربي من وليد، من كل شيء.

أتذكر الحكيمة دلال حين نصحتني مرة بالتخلص من دائرة المثالية المصطنعة. أكنت أبحث عن المثالية حقاً؟ أليس البشر اللاهثون وراء المثالية هم الأشد بؤساً في هذا العالم؟ هربي من تفاصيل حياتي، نفوري من قدري، يعني أني غير قادرة على التصالح مع كل ما يحدث، فلا أنا التي استطعت العيش في العالم المثالي المصنوع في دماغي ولا أنا التي تقبلت التكيّف مع واقعي.

أشعر أني بحاجة إلى سماع صوت الحكمة الداخلي، الذي صممت أذنيّ عنه كثيراً، هناك صوت داخلي ينادي بالحب والسلام، يبحث عن الأمان والطمأنينة، لطالما تجاهلته، وبقيت حبيسة ندب الحظ، الدائرة السوداء التي تغلف فواجع الدنيا كلها. أن أندب حظي يعني أني أفوّت على نفسي فرصة عيش اللحظة، أياً كانت هذه اللحظة. حديث المدرب الكندي أحدث لي هزة في الوعي.

* * *

رحلة العودة إلى الدمام في السابعة مساءً، لكني عزمت على التصالح مع نزعة الشر في ذاتي، ومجاراة ملذاتي المكبوتة، "انطلق يا حسي الاستهلاكي"، هكذا أفلتّه، أطلقت سراحه في السويعات الأخيرة من الرحلة، وقررت اقتناء حذاء بكعب عال، أنا التي لم أشعر بأي انتكاسة بعد الحمام المغربي، شعرت بجراءة أكبر بعد تلك الليلة من الفرك والدعك، صرت مؤمنة أن معظم محاذير الأطباء ما هي إلا وساوس لا تقتضي الالتزام بها. صرتُ أكثر شجاعة، وأقل خوفاً.

صحيح أن الكعب العال يُتعبني، ويُرهق أصابع قدمي ذات المفاصل المتورمة، لكن الأمر تخف وطأته مع حبوبي المُسكنة، إلى جانب تقليل عدد الساعات التي أنتعله فيها. هكذا قررت، عقدت هدنة مع نفسي، مع إصرار عجيب بأن أعود إلى الدمام بعلياء جديدة، لا تشبه تلك التي سافرت قبل أسبوع. ذهبت إلى دبي مول، تجوّلت بين المتاجر الراقية. خرجت بحذائين، الأول باللون الأحمر القاني الشبيه بدم يسيح من أضحية العيد، والآخر زيتي بلون حزمة من البقدونس المفروم.

ركبت الطائرة بحذاء رياضي، وعندما قاربت على الهبوط إلى مطار الملك فهد الدولي بالدمام، انتعلت حذاء البقدونس. أنا لا أمارس أية ازدواجية، لكني أحاول التكيّف مع المرض بطريقتي، أتقمص مظهر علياء القديم قبل أن أكبر وأتجعد وينهكني ألم المفاصل، قبل الشيخوخة والوهن. أحاول الاستمتاع بشبابي وقدرتي على المقاومة، وأتناسى قيود المنع والحرمان. أنا التي صرتُ أتمرد على تحذيرات الأطباء وأكسر قائمة المحظورات بدم بارد.

وكما توقعت، جاء وليد لاستقبالي. أقبلت عليه بطقطقة الكعب العالي الذي لم يسمعه مني منذ أشهر زواجنا الأولى. تعمدت المشي بخفة وأنا أجر حقيبة يدي، ابتسمت له وصافحته بهدوء، ثم ناولته الحقيبة التي سبقني معها إلى السيارة.

رطوبة الدمام تلفح وجهي، لتزداد دهنيّته، أشعر بلزوجة مساحيق التجميل التي تلطخ بشرتي، صحيح أن رطوبة دبي شديدة في أغسطس، لكني في الدمام أنتعل حذاء عالي الكعب، ووجهي مُثقّل بطبقات من الكريمات والبودرة، وكأني أيس كريم يذوب تحت لهيب

الشمس، الشيء الوحيد الباقي على حاله هي رائحة العنبر، لا زلت أشتمها في. هكذا شعرت، وأنا أتكلف الأناقة في لقائي مع وليد، قاهرة متاعب السفر وحر الدمام الخانق. لا أدري هل أردت أن أشعره أن أموري جيدة بدونه؟ أو ربما لاستفزازه؟ فوليد يمقت مغالاة التزيّن في الأماكن العامة، ويعتبرها نوعاً من الإغواء الرخيص. إلا أني ألحظ بعض الارتياح في وجهه، ربما شعر أني بذلت جهداً لأبدو أمامه كأنثى فاتنة، أحسسه ذلك بالزهو، أعتبر ما يراه مشهداً يخصه وحده، فهو يؤكد في أحاديثه الأخيرة أني المدام، وأني مرتبطة به دائماً، مهما حدث.

(كيف الدورة؟)، (الحمد لله، مفيدة). صمت وليد لثوانٍ.

- أخاف الكعب متعبك.
- لا مرتاحة فيه.

بدا من صوتي أني امتعضت من تعليقه السخيف، لاحظ هو ذلك، ليحاول تلطيف الجو (مجهّز لك مفاجأة)، قالها بحماسة، و لم أرد، ألقى نظرة عليّ أثناء قيادة السيارة:

- خمني، أو اسأليني؟
- وش المفاجأة؟
- غيّرت ديكور الشقة.

ألقى وليد جملته بفخر وبهجة، وكأنه يبشرني بخبر طال انتظاره، أنا التي لم أنتظر هذا التغيير و لم أطلبه يوماً. فمن ناحية كل ما في تلك الشقة جديد، ومن ناحية ثانية فأنا لم أعده بالعودة، هو يتحضر لشيء اختاره وحده. فضلت الصمت، لكن وليد لم يعجبه صمتي، وجلس يعطيني شروحات لم أطلبها (لصّقت ورق جدران على الصالة وغرفة

النوم، بالتوريد إللي تحبينه، وغيّرت الإضاءة وركبت إكسسوارات جديدة بالحمام). كان وليد يتحدث باستفاضة، فيبدو أن صمتي دفعه لأن يُحرق هذه المفاجأة التي عاشها مع نفسه، لتتحوّل من مفاجأة إلى تسوّل العودة.

- وليد، تعتقد إن الديكور كان مشكلتنا؟
- لا طبعاً، لكن قلت لنفسي تجديد المكان يجدد النفسية.
- نفسية مين؟
- أنا وأنتِ، هذا بيتنا و..
- (قاطعته) البيت بناسه، قبل ديكوره وأثاثه.
- وإنتِ ناسه وأنسه، إنتِ ست البيت، ونور البيت. (بابتسامة).

لم يمهلني مساحة للرد، رفع صوت أغنية الراديو (عيونك آخر آمالي وليلي أطول من أليم.. كيف ألقى كلامٍ عذب يوصف دافي إحساسي)[1]. دقائق وعدت للحديث، قررت اختباره بكذبة (وليد أنا بدأت بكورس الميثوتريكسيت). خفّض صوت الأغنية (كملي الكورس، والعمر قدامنا، لاحقين على دوشة سليمان).

رد وليد عقد لساني، ألجمني، تعجبت من أريحيته تجاه ما سمع، أنا التي ثار عليها قبل شهرين وكأني امرأة عاقر، كان غضباناً لكوني غير قادرة على الإنجاب خلال فترة العلاج. أجده اليوم متفهماً بصورة مذهلة، يتقبل كذبتي بأريحية، رغم أني كنت متوجسة منه، ظننته سيقذفني في الشارع.

---

(1) أغنية لعبادي الجوهر.

هل زاد نضج وليد، أم أن وضعي له أمام الأمر الواقع جعله يرضخ؟ هو لم يتفهم طبيعة علاجي إلا عندما حسمت الموضوع وحدي وأخبرته بنتيجة قراري، قرار يمسني شخصياً، لا علاقة له به على الإطلاق. أنا من أعطى وليد مساحة كبيرة في حياتي، أشركته سابقاً في أمور لا تعنيه. وليد هو البالون الذي نفخته بكل قوتي، ثم انفجر في وجهي.

نحن من نصنع الطغاة برضوخنا، نمنحهم حق إقرار المصير، ونرفعهم إلى مستوى يدفعهم للتمادي أحياناً. نحن من نحرم أنفسنا حق الاختيار، وهو حق فطري منحه الله للبشر جميعاً، أن تختار دينك وأفكارك ومكان إقاماتك وتعليمك ووظيفتك ودواءك. صحتي هي مسؤوليتي أنا وحدي، الاعتناء بها شأن ذاتي. عندما آمنت بذلك احترمني وليد، واحترم قراري.. لكنه تأخر كثيراً.

(21)

لن أعود لجلسات الضوء، هذا قراري الأكثر جـــرأة، عزمـــت التوقف عن هذه الجلسات، فخلال الأشهر الثلاثة الماضية لم ألحظ أية نتيجة. صحيح أن الطبيب أخبرني أن التحسن يتطلب الكـــثير مـــن الأشهر والسنوات، لكني لن أُضيّع زهرة شبابـــي داخل الكبســـولة الكئيبة والمستشفى البائس الواقع في أقذر أحياء الدمام. لـــن أهـــدر ساعات الاستراحة الثمينة في الخروج تحت لهيب الشمس وشم رائحة عرق السائق النتنة، وانتظار دوري بين أكوام الســـيدات المتلحفـــات بالسواد، وكأني أُساق إلى عزاء. أتشبع بطاقة سلبية خانقة، أشيب قبل أواني، أذبل في عز إزهاري، استنزف جهدي. عيوب هذه الجلسات تفوق مزاياها، إن كان هناك إيجابية واحدة تذكر.

لا أريد أن أكون صورة أخرى من دلال، ولا الجوري، والبقية. لا أرغب باعتياد هذا البؤس، لن أهزم أكثر. ففي كل مرة أعود مـــن الجلسة بإعياء مختلط مع الاشمئزاز من كل شيء. ســـخونة الصـــيف والروائح الكريهة وازدحام الأجساد البشرية، أكاد أتآكل من هـــذه اليوميات الكئيبة. أتألم نفسياً، أتفقد شفتيّ ولا أجد ابتسامتي القديمة، فقدتها تدريجياً في هذا المكان القبيح. أخبرت الدكتور نجيب بقراري، وتفهم هو ذلك (ما يمنع، ارتاحي من الجلسات، لكن داومي علـــى المرهم وخليني أشوفك بعد ست شهور). ثم سألني:

- كل مريض بالصدفية في أمور تثيره وأمور تخفف عنه، لاحظتي شي؟
- إيه، إذا نفسيتي كويسة حسيت بتحسن، لكن مع ضغط النفسي تتدهور حالتي.
- أجل حافظي على نفسيتك يا علياء، حافظي على مزاجك، وداومي على المرهم.

***

توقفت عن صبغ أظافري بالطلاء، سأعطي العلاج فرصة لاختراقها، فصحتي أهم من رأي الناس بشكل يدي، وأدرك أن المناكير لم تكن تساعد المرهم على تحسين ما أفسدته الصدفية. أعلم أن أظافري قبيحة، لكني قررت تقبلها على أي حال. وكأني أم لطفل مريض بمتلازمة داون، حزنت في بداية معرفتها بالأمر، وتقبلته لاحقاً، ثم اعتادته. السر هو في الاعتياد، معظم مخاوفنا لا تحدث وليس لها داعٍ، هي ناتجة من الأمور التي لم نعتدها، لكن بمجرد أن تغدو هذه الأمور جزءاً ثابتاً وروتينياً في حياتنا، حتى نتقبلها ونتصالح معها.

الصدفية مرض مقرف، لكنه أصبح جزءاً مني. جنسية والدتي يُنظر لها بريبة وتوجس، لكنها قدري. وليد خذلني لكنه ليس الرجل الوحيد في هذا العالم. عيشي يا علياء، عيشي وتخطي كل شيء.. هكذا أحادث نفسي، وأنا أرتب غرفتي. رميت علب القطران في المزبلة، رميت الخلطات الشعبية ذات الرائحة الكريهة. أحاول التخلص من إرث ثقيل تراكم بسرعة خلال أشهر، لكني بقيت في زنزانة العار، أخشى أن يعلم الآخرون بمرضي، مرة أتخيّل شماتة

عواطف وبناهّا، ومرة أتخيّل الردود القاسية التي سمعتها من وليد، ومرة أتذكر أبو فواز وهو ينظر إلى يدي بشفقة. تربكني هـذه المشـاعر القاسية، وأتجرعها وحدي، ما زلت أتكتم على مرضي وعلاجـي، هرباً من شيء لا أعلم ماهيته.

***

ساعات يومي طويلة، قررت ألا أترك نفسي ضحية للوساوس والضجر. اقتنصت فرصة استراحة العمل لأسأل زميلاتي (تعرفون مكان كويس لدورات الزومبا؟)، هلّت الاقتراحـات، لتـوكزني زينب (أي زومبا، من جدك؟). أوسعت عيني بخفة وأنا أبتسم (إيه من جدي التاسع عشر). أنا أتفهم تعجب زينب، فهي الوحيـدة التي تعلم بوضعي الصحي، وبألم المفاصـل الـذي لا تخففـه إلا المسكنات، لكنها لا تدرك أني بحاجة إلى نقطة عبور، إلى أداة أشعر من خلالها أني أقوى من الألم ذاته، وأن الصدفية لن تستطيع هش شبابـي، لا بأس من التجربة وبعض الجسارة، هذا ما أعتقـد أن زينب فهمته من بريق عيني، هي تعلم لحظة التحدي التي تأتيني في هذه المواقف.

وقع الاختيار على الكوتش فريال، عراقية تعمل في نادٍ صـحي يتبع لكمبوند في الخبر. وجدت نفسي غريبة في اليوم الأول، كطالبة انتقلت إلى مدرسة جديدة منتصف العام، فكل المشتركات يعـرفن بعضهن بعضاً، عداي أنا. هذا دفعني للحرج من أداء الكـثير مـن الحركات الصعبة، (كلنا كنا كذا باليوم الأول) هذا ما قالته فتاة لطيفة من المشتركات بحصص الزومبا.

الكوتش فريال تبتسم لي وهي ترقص وتصفق (ممتاز يلا، يـــلا). بعد عشر دقائق بدأت أندمج مع هذه الالتـــواءات الســـريعة، أهـــز خصري، أحرك ردفيّ، تتمايل يدي بخفة، أتعرق وأتعرق وأتعرق. غدا وجهي أحمر بلون الطماطم (خلاص ما أقدر)، جلست بعـــد ربـــع ساعة، دقات قلبـــي تتسارع بصورة مرعبة، واســـتمرت الكـــوتش فريال ترقص مع المتدربات في النصف ساعة المتبقية.

عدت إلى المنزل وأنا أعرج، إرهاق فظيع، أرجعتـــه لضـــعف لياقتي، فمنذ أشهر طويلة لم أمارس أي رياضة تُذكر. شعرت بتيـــبّس في مفاصل قدمي، زاد صباح اليوم التالي، كنت أمشـــي بصـــعوبة، ابتلعت حبتين من المسكن مرة واحدة. لكن شيئاً داخلي كان يقـــول (استمري يا علياء). كانت حصص الزومبا مقسمة على ثلاثة أيام في الأسبوع، مدة الحصة الواحدة خمس وأربعين دقيقة، تبدأ بعد الثامنـــة مساء، أعود بعدها إلى المنزل مرهقة وجائعة، فأصنع لي طبقـــاً مـــن السلمون الذي يعيد لي ذكريات مرحلة الحرية، قبل ارتباطي بوليد.

في الحصة التالية قررت الذهاب، رغم الألم الذي أحســـته في البداية، عزيمة غريبة تلبستني، ارتديت طقم أديداس الرياضي، وربطت شعري إلى الأعلى، كنتُ متأهبة، وهو ما أعجب الكوتش فريـــال، التي أخذت تشجعني خلال الحصة (برافو علياء). حاولت الانـــدماج سريعاً مع أداء الفتيات المتقدم، أشعر بالإعياء والعطـــش في أحيـــان كثيرة، إلا أن الكوتش فريال ظلت تحذر من الجلوس أو شرب الكثير من الماء، (بللوا شفايفكم بس)، هذه جملتها المعتادة.

أكتفي بإسناد ظهري على الجدار لثوان معـــدودة، ثم أعـــاود الرقص. أرقص بنشوة، وكأني ألامس السماء، فالزومبـــا لا تحـــرق

السعرات الحرارية فقط، بل تمنح البهجة. أضحك بشكل هستيري أثناء أداء الرقصات على الأنغام اللاتينية. ما دعا الكوتش فريال للقول (أداؤك ملخبط يا علياء، تحتاجي وقت، لكن ضحكاتك وسعادتك تكفي، وأتوقع تتقني الزومبا قريباً).

هي لا تعلم أني لا أريد إتقان الزومبا، أنا لا أتعلم الرقص كي أحرق الدهون، بل لأني خائفة أن أندم عندما أكبر ولا أجد أمامي إلا ألم المفاصل، أخشى أن تبلى مفاصلي بسرعة دون أن أتمتع بحركتها، أنا مع الزومبا أكافح العجز المبكر، أهرب من الشعور بالتيبّس، أهرب من الاكتئاب، أهرب من الواقع. الزومبا مساحتي للحركة المجنونة، يكفيني منها هذه البهجة، وكأني أتعاطى جرعة كوكايين تُنسيني كل شيء.

ما شجعني أن ألم اليوم الأول الذي تلا حصة الزومبا خف تدريجياً مع بقية الحصص، لم أعد أشعر بذاك التيبّس الصباحي في قدميّ، إلا أني خشيت الانقطاع عن المسكن، استمررت عليه وعلى الزومبا، وأدركت حينها أن هذه المفاصل غبية إلى الحد الذي تحتاج فيه إلى عزيمة لإعادة نشاطها. الاستسلام هو بوابة العجز الأولى، إن شعرت الحياة أننا لا نستحقها فلن تعطينا.

سلاسة الأمور سهّلت مهام تعايشي مع الصدفية، مرضي الخفي الذي لا يعلم عنه أحد، إلا المقربون جداً، حتى الكوتش فريال التي تساءلت مرة عن سبب العرج الذي يلم بي بعد الحصة، أخبرتها أن لديّ نقصاً في الكالسيوم، كذبة جديدة اخترعتها. لا زلت أشعر ببعض الحرج من مرضي رغم كل هذه المقاومة، كنت أتحاشى نظرات الشفقة، وأعلم أن الكوتش فريال وكثيرون ربما لا يدركون

أن الصدفية مرض غير معدٍ، يرون الأمراض الجلدية مقرفة ومقــززة. خشيت أن تشمئز مني المدربة وزميلات الزومبا، تماماً كما خشــيت من نظرة الزملاء والزميلات في العمل، ونظرة معارفي وجيراني وأهلي وأهل وليد. فلا شيء أقسى من تحاشي الآخرين مصافحة يدك تقززاً واشمئزازاً، خشيت الوقوع في فخ هذه اللحظة المؤلمة، لــذا آثــرت الصمت. وأنا أدرك جيداً أن مشاعر العار التي أعيشها تجاه مرضــي عليّ أن أكسرها يوماً ما، لأرتاح.

(22)

الجائع لا يكترث – عادةً – لنوعية الطعام الذي يُقدم إليه، مـــن يتضور جوعاً لا يتطلب، يسد قرقرة بطنه بأي لقمة، الخيارات متاحة فقط لأولئك المترفين. أتساءل إن كنتُ من الجياع أم المترفين؟ أنا التي سددت خانة العوز العاطفي بوليد، ولا زلت متشبثة بالرابطة الهشـــة التي بيننا، كمن يتمسك بحبل مهترئ مخافـــة الســـقوط في الـــوادي العميق.. أنا الجائعة، التي ابتلعت أقرب لقمة قُدمت إليّ، و لم أشـــبع، شعرت بالتخمة والإنهاك، زاد وزني من ثقل هذه اللقمة، لا هي التي سدت جوعي ولا هي التي خرجت مع فضلاتي، بقيت عالقة علـــى بطانة المعدة، شاغلة حيّزاً تستحقه لقمات أخرى، لربما كانت ألـــذ. هذا هو وليد، أقسى من تين شوكي، أعفن من بيض فاسد، أزفر من سلمون مدخن.

ما زالت معركة الاستمرار أو الانسحاب تدور في رأسي، إلا أن وليد يظن موقفي تزحزح بعد رحلة دبـــي، هو لا يعلم أن مشاعري تجاهه تتكون بصورة أوضح، كالفقاعات الراكدة في زجاجة البيبسي، مع كثرة الاهتزاز زاد عددها، وطاش المشروب، اندفع بقوة جامحـــة خارج القارورة. أنا مقتنعة أن هذه القارورة الخانقة لا تليق بـــي، ولا تلائمني. ومن الغباء أن أجامل وليد على حساب راحتي ومشاعري، فهما أعز ما أملك.

أخشى أن تأخر قراري يضاعف من خسائرنا كلينا، فوليد يدفع أمواله لتحسين بيت الزوجية، وأنا أدفع حريتي ثمناً لهذا الوضع المضطرب، أنا التي يُسميني المجتمع "معلقة"، لا أنا المتزوجة ولا المطلقة. أخشى أن أعود لمنح وليد فرصة جديداً ثم أتورط معه بإنجاب أطفال استقرارهم عرضة للاهتزازات. أنا ممتنة لله الذي لم يربطني معه بأطفال لا ذنب لهم، هذه فرصتي للانسلاخ من أغلال وليد بخفة.

الأشهر التي مرت جعلتني أعي الدرس جيداً، صفعات الحياة علمتني أن وليد ليس ذاك الرجل الذي سأحتسي معه القهوة في سنوات الشيخوخة وأتبادل معه ذكريات الصبا. وليد خذلني في أشد أزماتي، رغم أني لا زلت جميلة وشابة، فكيف إن نهشتني السنوات وزاد ضعفي وتلاشت حيويتي؟ للتو أدركت معنى دعاء العجائز (الله لا يحوجنا لأحد). الله لا يحوجني لك يا وليد.

***

مشكلة البعض أنهم يتكئون على محبة الآخر، يعتقدون أن هذه المحبة دائمة أبد الدهر، مهما بدر منهم، مهما تمادوا، مهما أتلفوا من ذاكرة أيامنا. لا يدركون أنهم يسحبون من خزان المحبة، ثم يتفاجؤون في لحظة ما أن الخزان جف ونفد. لن تجد أحداً يسامحك طيلة الوقت، لا أحد بإمكانه الصفح عن هفواتك مدى الحياة. وحدهم الأغبياء يفعلون ذلك، وأنا لست غبية.

حين تعطي الفرصة تلو الأخرى، فهذا يعني أن القرار النهائي الذي يتمخض عن تلك الفرص هو قرار ناضج ومدروس، إن صدر فلا مجال للرجعة فيه، ولا مكان للندم والحسرة. يذكرني ذلك برسالة

بعثها وليد (يا شيخة خلاص ترى البعد يولّد الجفاء). صدقت نبوءتك يا وليد، لكن الابتعاد عنك لم يدفعني للكراهية، بل جعلني أدرك أن الحياة بدونك أكثر بهاءً، وأنك والمجتمع الذي تعشش الأفكار الحمقاء في أدمغة أصحابه لم يعد يعنيني في شيء. قررت أن أكون حيث أراني أنا وليس في المكان الذي يراني فيه الآخرون.

* * *

تفطن الكوتش فريال إلى شراسة أدائي والعرق المتصبب من جبيني، (متحمسة يا علياء). لا أعلم إن كانت حماسة أم رغبة متمردة بركل أولئك الذين عانيت منهم، أحرك ساقيّ بسرعة، أضرب يدي في السماء، أدعس قدمي في الأرض، ينغزني ألم المفصل، لن تقهرني أيها الإصبع الصغير. أرقص وأرقص، وكأني أحاول إخراج علياء القديمة من جسدي، علياء الضعيفة التي طالما تلبستني وقيدتني، اخرجي، غادري، اتركيني وشأني.

لا أعلم كم من الوقت مر منذ بدأت أواظب على حصص الزومبا. إلا أن اتصال دلال فطنني إلى أن بضعة أسابيع انقضت (وينك يا علياء؟ فقدناك!). أخبرت دلال بقراري التوقف عن جلسات الضوء، بدت ثائرة (علياء العلاج ما يخضع لمزاجيتك)، حذرتني من تبعات قراري، نبهتني إلى أن الصدفية تتطلب الكثير من الوقت والجهد. أخبرتها أن الطبيب منحني مهلة أشهر للابتعاد، وقد أعود لاحقاً. هدأت دلال (براحتك حبيبتي).

بعد بضعة أشهر، استأذنت من أبو فواز، خرجت من المكتب، للحاق بموعدي عند الدكتور نجيب في التاسعة وخمس وأربعين دقيقة،

كانت هذه أطول مدة أنقطع فيها عن المستشفيات منذ بدأت رحلة إصابتي بالصدفية، دخلت عيادة الجلدية في الموعد المحدد، وما أشبه اليوم بالبارحة، لم يتغير شيء، ما زال المرضى يصطفون أمام غرفة العلاج بالضوء، أسمع صوت حميدة من وراء الستار وهي تنادي أسماءهم بالتناوب. انتظرت لدقائق في إحدى كراسي الانتظار، إلى أن نادتني الممرضة (علياء الضباني). دخلت على الدكتور نجيب، سأل عن أحوالي ثم فحصني.

- مداومة على المرهم يا علياء؟
- يوميا، مرة الصباح ومرة قبل النوم.
- طيّب. خففي الجرعة، مرة وحدة قبل النوم تكفي.
- ليه؟
- حالتك متحسنة (مبتسماً). لكن لازم تتابعي العلاج، وتعالي بعد ثلاثة أشهر.

حديث الدكتور نجيب رفعني إلى السماء، للمرة الأولى أرى ابتسامة هذا الرجل الرصين، كان سعيداً لرؤية جهوده تثمر، ومراهمه قادرة على تقييد عناد الصدفية، ذكرني أنه لا شفاء تام من هذا المرض، لكن حصره بمساحة ضيقة هو إنجاز، وهدف عليّ أن أكرس له حياتي كلها. خرجت من العيادة، لأتبضع دونات الشوكولاتة التي أحبها، وزعتها على الموظفين والموظفات في صالة الاستراحة الكبيرة، سألوني عن المناسبة، نظرت لهم بابتسامة (بمناسبة تكيفي مع الصدفية.. أنا فيني صدفية).

(23)

أن أتقلب على السرير ليلاً بأريحية، نائمة بعمق، دون أن يسحب الغطاء شخص آخر بجانبي ويتركني بساق عارية يلفحها التكييف، هي نعمة لا تستشعرها إلا المرأة التي كسرت قيدها القديم. أن تكون درجة البرودة التي أختارها في غرفتي هي أمر أقرره أنا وحدي، ومستوى الإضاءة هي مسألة أختارها أنا وحدي، لستُ مضطرة لعقد جلسة تشاور أو استئذان كائن آخر بما يريحني.

أن أمارس حريتي داخل غرفتي، أضع على رأسي زيت برائحة نفاذة، دون أن يتهكم أحد أو ينزعج من طقوس عنايتي بشعري. أن أرفع صوت الأغاني إلى الدرجة التي تشعرني بالنشوة وأرقص الزومبا أمام المرآة بانطلاقة، دون أن يقول أحدهم (قصري الصوت أزعجتني). أن أرش غرفتي بمعطر الجو الذي تستهويني رائحته، دون أن يتحسس أحدهم من عبق اللافندر المركز. أن أطهو الطعام الذي أشتهيه وفق ذائقتي الخاصة، لستُ مضطرة لاستبعاد الليمون لأن فلان لا يحب الحوامض، لست بحاجة إلى جعل الأكل شديد الاستواء لأن فلان يكره الأطعمة النيئة.

كلها أمور ممتعة لأي امرأة حرة، لأي امرأة تجد نفسها ليست ناقصة بدون رجل. صحيح أن الزواج علاقة جميلة ولها قدسيتها، لكن اعتقاد أن المرأة غير المتزوجة هي كائن بحياة بائسة هو أمر يستفزني

بشدة، المرأة ليست عاجزة عن خلق السعادة في حياتها. إن جاء الرجل الجيد أهلاً وسهلاً، وإن لم يأت أو لم يكن جيداً كفاية، فالبقاء مع الوحدة هو الأفضل. هذا ما لا يتفهمه كثير من الناس، وسلمى نور الدين واحدة منهم. تخنقني نظرة الحزن التي ألحظها في عينيها، تعتقد أن حياتي انتهت لمجرد أني أصبحت مطلقة، اعتبرت صك طلاقي بمثابة شهادة الوفاة، أنا التي رأيته شهادة ميلاد، حياة جديدة للتو أدركت قيمتها.

قلة هم الذين يحترمون حق اختيار الأفراد في مجتمعنا، والطامة الكبرى حين يكون هذا الفرد أنثى، هنا الكل يعطي نفسه المساحة المتطفلة لإبداء الرأي والتوجيه والإرشاد، وكأنه محكوم علينا نحن الإناث أن نعيش الحياة نفسها، بذات التراتبية، نضوج ثم زواج ثم إنجاب وتربية أبناء. حتمية حمقاء يعتقد كثيرون أن البقاء في دائرتها مؤشر للسعادة الموهومة، والمشكلة أن معتنقي هذه الفكرة هم الأشد بؤساً، الأبعد عن السعادة.

هذا الزواج الذي حاربت سلمى نور الدين الدنيا لنحو ثلاثة عقود لأجل استمراريته، لم يمنحها الطمأنينة ولا الأمان أو السعادة المرجوة، ظلت تكافح لأجل الصمود فقط. كثيرات مثلها، سعوديات كن أو مغربيات أو أي شيء آخر.

نساء يكتفين بشرف إكمال المسيرة، يعتقدن أن هذا بحد ذاته إنجاز، لا يعلمن أن لا أحد يلتفت إليهن، لا أحد معني فعلياً بتضحياتهن، هن يخشين شماتة الأعداء وفشل الزواج، بينما الكل مهتم بنفسه وحياته. يحبسن أنفسن في قفص العلاقة هرباً من أوهام بائسة، فلا هي التي سعدت بحياتها، ولا هي التي انتزعت حريتها. هن جواري

السمعة، عبيد المجتمع، مقيدات بالخوف من المجهول، أكره أن أكون جزءاً من هذه الدائرة حالكة السواد.

تجربتي القصيرة مع وليد فتحت عيني على قيمة الحياة، وأنها قصير جداً، تمر أيامها بغمضة عين، أصبحت ممتنة لكل يوم جديد أعيشه، وأطمح أن يكون أجمل من سابقه. صحيح أني لم أكره الزواج لذاته، لكني لن أعتبره مجرد حتمية لفتاة لامست سن الثلاثين، فلربما يأتي الرجل المناسب في الأربعين أو الخمسين، وقد لا يأتي أبداً، وهذا لا يعني انتهاء العالم.

***

إلى مقر الشركة أذهب كل يوم، يستقبلني طاهر بكوب القهوة السوداء "بلاك كوفي"، لأمارس مهام عملي بنشاط. إلا أن ذاك اليوم لم يكن اعتيادياً، جاءتني زينب تركض وفرحة الدنيا في عينيها.

- مبروك، يا علياء مبروك.
- الله يبارك فيك.. على إيش؟
- عملت أرامكو رابطة لدعم مرضى الصدفية، ورشحوك لرئاستها. حركات يا رئيسة (غامزة).

همت ما بين السعادة والارتباك، فلم أكن مستعدة كفاية لهذا المنصب التشريفي، وفي ذات الوقت أنا منشرحة لمشروع هذه المبادرة الاجتماعية التي تدعم أمثالي، وأدرك أن الشركة التي أعمل بها تهتم كثيراً بالمناشط والمشاريع التي تخدم المجتمع. سألت زينب (الرابطة تخص موظفين أرامكو بس؟). أجابت بالنفي، ذهبت للاستيضاح أكثر من القسم المعني في الشركة، وجدت الكل يبارك لي، وحين

علمت أن الرابطة ستكون على مستوى المنطقة ولا تخص جهة بعينها، أبديت امتناني، ثم اعتذرت، قلت لهم (في وحدة أنسب مني)، سألوني من تكون، فأعطيتهم بيانات التواصل مع دلال.

الدمام – أكتوبر 2017

المؤلفة

إيمان الخطاف

- روائية وإعلامية سعودية.
- تعمل في الصحافة منذ عام 2006 وحتى الآن.
- ماجستير إعلام، كلية الآداب – جامعة الملك سعود بالرياض (2014).
- صدرت لها رواية "كيمياء الخيبة" عن الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت (2016).

للتواصل:

e.alkhataf@gmail.com
Twitter: @ealkhattaf

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

ساحرات بلا مكانس

إيمان الخطاف

يتخيّل الأطفال الساحرة بوجه دميم وأنف معقوف، تطير بمكنسة خشبية، ورداء أسود. أما أنا؛ فلم تستطع الأعمال التلفزيونية تدجيني وغرس الهيئة النمطية للساحرات في ذهني. ليس لأني نبيهة، أو عبقرية. بل لأني «بنت الساحرة»، كما ينادونني، لذا أدرك أن الساحرات يأتين في هيئة آدمية، كحال بقيّة البشر.

أنا علياء، بنت الساحرة، بنت المشعوذة، بنت الدجالة، بنت خطّافة الرجال. كل النعوت الخبيثة تلاحقني، لأن والدتي هي سلمى نور الدين، المرأة القادمة من بلاد فاس ومكناس وطنجة وتطوان، من حضارة بدأت مع الفينيقيين وامتدت إلى العهد الإسلامي، وحضنت الثقافة الأمازيغية والعربية والعبرية والإفريقية.

توزيع
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com